سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس من حياة وجهاد الرسول الأكرم

صلى الله عليه وآله

مركز نون
للتأليف والترجمة

شبكة
المعارف
الإسلامية

دروس من
حياة وجهاد الرسول الأكرم ﷺ

اسم الكتاب:	دروس من حياة وجهاد الرسول الأكرم ﷺ
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الثانية:	2014م - 1435هـ

سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس من
حياة وجهاد الرسول الأكرم ﷺ

إعداد

مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 11

الدرس الأوّل: الجزيرة العربيّة قبل الإسلام 13
الموقع الجغرافيّ والأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة 15
الجاهليّة والقبيلة 17
العصبيّة 18
نُظُم الحكم 18
مفاسد المجتمع العربيّ 19
الحالة الدينيّة في الجزيرة العربيّة 19

الدرس الثاني: السيرة ومصادرها الأصيلة 29
معنى السِّيرة والهدف من دراستها 31
مصادر السيرة النبويّة 32
ضوابط السيرة الصحيحة 34

الدرس الثالث: سيرة رسول الله ﷺ -من الولادة إلى الزواج- 41
نسب النبيّ ﷺ 43
النبيّ في كفالة جدّه 44
وفاة عبد المطّلب ورعاية أبي طالب للنبي ﷺ 45
السفر إلى الشام ونبوءة الراهب 45

النبيّ محمّد ﷺ في شبابه 46
زواجه من خديجة 49

الدرس الرابع: البعثة النبويّة المباركة 55
إرهاصات الوحي والنبوّة 57
طمأنينة رسول الله ﷺ 57
الدعوة السريَّة 58
أوّل من أسلم من النساء والرجال 59
شبهة أنّ علياً هو أوّل من أسلم من الصبيان 60
دعوة عشيرته 61

الدرس الخامس: الدعوة العلنيّة ومواجهة قريش 67
بداية الدعوة العلنيّة 69
محاولات قريش 69
ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام 71
الحصار في شعب أبي طالب 71
عام الحزن 73
الإسراء والمعراج: 74

الدرس السادس: أحداث ما بين البعثة والهجرة 81
خصائص الدعوة الإسلاميّة في مكّة 83
الهجرة إلى الحبشة 84
سفره إلى الطائف للدعوة 84
انتشار الإسلام في يثرب 86

الدرس السابع: الهجرة النبويّة إلى المدينة 93
مبيت الإمام عليّ عليه السلام في فراش النبيّ ﷺ 95

الرسول ﷺ في المدينة 96
دوافع الهجرة 98
بناء الدولة والمجتمع في المدينة 98

الدرس الثامن: جهاد النبي ﷺ (1) معركة بدر - معركة أحد 107
التحرّكات العسكريّة الأولى للمسلمين 109
معركة بدر 110
عوامل انتصار المسلمين 114
معركة أُحد 115
آثار المعركة 118
أسباب الهزيمة ودروسها 119

الدرس التاسع: جهاد النبيّ ﷺ (2) معركة الخندق - صلح الحديبيّة 125
معركة الخندق (الأحزاب) 127
عوامل النصر في معركة الخندق (الأحزاب) 128
نتائج المعركة: 129
إرهاصات صلح الحديبيّة 130
بنود صلح الحديبيّة 132
نتائج صلح الحديبيّة 133

الدرس العاشر: جهاد النبيّ ﷺ (3) الفتح المبين - معركة حُنين 139
قريش تَنقض العهد 141
فتح مكّة 142
أسلوب الحرب 143
دخول مكّة 144

غزوة حُنين 146
حصار الطائف 147
دروس من حُنين 148

الدرس الحادي عشر: جهاد النبيّ ﷺ (4) غزوة بني قينقاع - غزوة بني النضير . 153
مخالفات اليهود 155
تحويل القبلة 156
اليهود في مواجهة الإسلام 156
موقف النبيّ ﷺ من اليهود 157
حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود: غزوة بني قينقاع 158
حروب النبيّ ﷺ ضد اليهود: غزوة بني النضير 159

الدرس الثاني عشر: جهاد النبيّ ﷺ (5) غزوة بني قريظة - معركة خيبر .. 167
حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود: غزوة بني قريظة 169
حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود: معركة خيبر 171
استسلام يهود فدك 175
سقوط بقية مواقع اليهود وادي القرى وتيماء 175

الدرس الثالث عشر: جهاد النبيّ ﷺ (6) معركة مؤتة - غزوة تبوك 181
تمهيد 183
معركة مؤتة 184
غزوة تبوك 185
محاولة اغتيال النبيّ ﷺ 187
نتائج تبوك وملامح الانتصار 188
مواقف ودروس من غزوة تبوك 189

الدرس الرابع عشر: البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين 195
عام الوفود وتصفية الوثنيّين 197
البراءة من المشركين 197
مباهلة نصارى نجران 198
حركة النفاق في المدينة 200
أساليب المنافقين العدائيّة 200
موقف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من حركة النفاق 201

الدرس الخامس عشر: الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة 209
تعيين وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم 211
ظهور المتنبّئين 214
التعبئة العامّة لغزو الروم 215
الحيلولة دون كتابة الوصيّة 217
اللحظات الأخيرة من عمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم 218

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد بن عبد الله وعلى آله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

يمثّل رسول الله محمّد بن عبد الله ﷺ النموذج الإنسانيّ الكامل الذي اجتمعت في شخصيّته كلّ الصفات والخصائص والقيم الإنسانيّة والإلهيّة، فهو رجل العلم والفضل والعقل والكمال، ومثال الحكمة والوقار والجلال، عارف حكيم تقيّ شجاع حازم، وهو الرجل المعصوم من الخطأ المبرّء من الزلل، أكمل الخلق وأفضلهم وأعظمهم أخلاقاً.

وقد اتسع قلبه لآلام الناس ومشكلاتهم، فجاهد في الله حقّ جهاده، ووقف بحزم وثبات وقوّة في وجه قوى الشرك، والوثنيّة واليهوديّة، من أجل العدالة والحريّة والمحبّة والرحمة، ومن أجل مستقبلٍ أفضل لجميع الناس.

ولأجل ذلك فقد جعله الله قدوة وأسوة للناس جميعاً، وفرض عليهم أن يقتدوا به وأن يتّبعوه في كلّ شيء، حتّى في جزئيّات أفعالهم فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

ولذلك أيضاً فقد حظيت شخصيّة رسول الله ﷺ وكذلك حياته وسيرته باهتمام التاريخ والمؤرّخين والباحثين، وأُلّفت حول شخصيّته وسيرته العطرة مئات بل آلاف

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.

الكتـب والدراسات، ولا نعلم سيرة رجل قد نُقّحـت وحُقّقت ومُحّصت كسيرة وتاريخ وحياة ودعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولـم يكتف تاريـخ الإسلام المـدوّن بتسجيل الأحـداث والمواقف العامّـة من حياة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم، بـل سجّل لنا تفاصيـل حياته ودقائـق تصرّفاته، حتّى الحـركات واللفتات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث بدقّة متناهية واستيعاب لا نظير له.

وبالرغم من كثرة ما كتب في السيرة النبويّة عرضاً وتحليلاً إلّا أنّ المكتبة الإسلاميّة تفتقر إلى كتاب تعليمي ممنهج في السيرة والتاريخ يمكن الاعتماد عليه في تقديم صورة واضحة ونقيّة بأسلوب تعليمي عن حياة وسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وهـذا الكتاب «**دروس من حياة وجهـاد الرسول الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم**» يحتوي على عرض تحليلـي لسيرته صلى الله عليه وآله وسلم منذ ولادتـه إلى أن اختاره الله إليه. والمراحـل التي مرّ بها في صبـاه وشبابـه، ومسيرة الدعوة إلـى الله منذ أن بعثـه الله في مكّة مـروراً بحروبه وغزواته، وما يتّصل بذلك من أحداث ومواقف وتحدّيات رافقت الدعوة.

وقـد اعتمدنا في جميع ذلـك على هامّة من المصـادر الإسلاميّة، وفي مقدّمتها كتاب الله عزَّ وجلَّ وما رواه المعصومون الأطهار عليهم السلام ممّا يتعلّق بسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، على اعتبار أنّ أهل البيت عليهم السلام أدرى بما فيه.

واقتصرنـا على تناول وبيان بعض الوقائـع المهمّة التي تنطوي على قدر أكبر من الفائدة والعبرة، وأعرضنا عن ذكر الحوادث الجزئيّة، لكنّنا خصّصنا بعد كلّ بحث مقطعـاً خاصّاً للمطالعة تناولنا فيه شخصيّة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم الذاتية، وسيرته الأخلاقيّة مـن أجل تكوين صـورة واضحة عـن صفات النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وخصائصـه وعلاقته بربّه وطريقة تعامله مع أسرته والأمّة.

والحمد لله ربّ العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

الدرس الأوّل

الجزيرة العربيّة قبل الإسلام

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى جغرافيّة شبه الجزيرة العربيّة.

2- يفهم ملامح الحياة السياسيّة في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام.

3- يتعرّف إلى الحالة الدينيّة عند العرب قبل الإسلام.

الموقع الجغرافيّ والأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة

تقع شبه جزيرة العـرب، والتي تُسمّى أيضاً «جزيرة العرب»، في الجنوب الغربيّ من قارّة آسيا، وهي أكبر شبه جزيرة في العالم.

ويحدُّها من الجنوب خليج عدن والمحيط الهنديّ وبحر عُمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومـن الشرق خليج عُمان والخليج الفارسيّ والعـراق، وتُتاخمها من الشمال صحراء واسعة تنتهي بسهل الفرات.

مناخها قاسٍ، وهواؤها جافّ، وليس في طول البلاد وعرضها مياه – عدا الأقسام الجنوبيـة – ولا أنهـار صالحـة للملاحة فيها، والسبب في جفافهـا هو كونها محاطة بجدار جبليّ شاهق من ثلاث جهات[1].

وهذا الجدار هو الذي يصدّ رطوبة البحار ويمنعها من الوصول إلى هذه المنطقة.

أقسام الجزيرة الرئيسة:

1- الوسطيّ الذي يُسمّى بالصحراء العربيّة.

2- الشماليّ وهو ما يُعرف باسم الحجاز.

(1) تمتدّ هذه الجبال من شبه جزيرة سيناء في موازاة البحر الأحمر على شكل سلسلة كأنّها جدار عازل، ثمّ تلتفّ عند الزاوية الجنوبية الغربية، وتدور في موازاة الساحل الجنوبي والشرقي لجزيرة العرب.

3- الجنوبيّ الذي يُعرف باسم اليمن[1].

ويتميّـز القسم الجنوبيّ (اليمن) بكثرة هطـول الأمطار فيه، وكونه منطقة زراعية مزدهرة وتقطنها أعداد غفيرة من السكان. ولهذا لا تكاد تُقارَن بشمال ووسط جزيرة العرب؛ وهذا ما استدعى نشوء القرى والمدن واجتماع الناس في هذا القسم، ممّا أدّى إلى وجود أنظمـة وقوانين (وإن كانت بدائية)، وما يُلازِم ذلك من تأسيس الحكومات التي ظهرت في هذه المنطقة قبل ولادة المسيح عليه السلام بمئات السنين، نذكر منها:

1- الدولة المعينية: (1400 ـ 850 قبل الميلاد).

2- الدولة السبئية: (850 ـ 115 قبل الميلاد).

3- دولة قتبان: (865 ـ 540 قبل الميلاد).

4- دولة حضرموت: (1020 قبل الميلاد ـ 65 بعد الميلاد).

5- دولـة سبأ وريـدان وحضرموت وأطراف اليمـن، وكان يُسمّـى ملوكها «تُبَّع»، واستمرّ حكمها من عام 115 قبل الميلاد إلى عام 523 بعد الميلاد[2].

وأثنـى المؤرّخـون كثيراً على الحضـارة الزاهرة التي نشأت فـي اليمن، ووصفوا قصـور سبأ بأنّهـا قصور نضرة ذات أبـواب مُرصَّعة بالجواهـر، ومساكنها عامرة، وفيهـا أوانٍ مـن الفضّة والذهب، وفيها سدّ مأرب الذي انهـار قبل أربعمائة سنة من ظهور الإسلام[3] نتيجة إهمال من أمّة آخذة في الإنحطاط.

أدّى هـذا الخـراب والانحلال إلـى مهاجرة عـدد كبير من أهـل اليمن، وحدوث تحوّلات كبيرة في شبه جزيرة العرب، حيث توجّه رهط تنّوخ من قبيلة الأزد اليمانية

(1) قـال المقدسـيّ، وهو من العلمـاء المسلمين في القرن الرابع، إنّها تُقسم إلى أربعة أقسـام كبرى، وهي: الحجاز، واليمن، وعُمان، وهجر (أحسن التقاسيم، ص102)، وقسّمها غيره إلى خمسة أقاليم.

(2) شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنّة المحمّديّة، القاهرة، ط2، 1384هـ، ص 53.

(3) الآلوسي البغدادي، محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط2، ص204.

أشـار القـرآن الكريم إلى قوم سبأ فـي سورتين، إحداهما بمناسبة ذكر ملكة سبأ وكتاب النبـيّ سليمان إليها في سورة النمل، الآيتان: 22 و 23، وثانيهما بمناسبة ذكر الآثار الناتجة عن انهيار السدّ في سورة سبأ، الآيات: 15-19.

إلى الحيرة (العراق)، وتوجّه آل جفنة إلى الشام، وسارت قبيلتا الأوس والخزرج إلى يثرب (المدينة المنوّرة)، بينما توجّهت خزاعة إلى مكّة وما جاورها[1].

الجاهليّة والقبيلة

عُـرف عصر ما قبل الإسلام في الجزيـرة العربيّة بـ«العصر الجاهليّ». ورغم أنّ كلمة الجاهليّة مشتقّة من الجهل، إلّا أنّ الجهل هنا لا يقع في النقطة المقابلة للعلم، وإنّمـا يقع في النقطة المقابلـة للعقل والمنطق، فهي تعني السفـه والغضب والأنفة، وهـي الحال التـي كانت عليها العرب قبل الإسلام لِما كانـوا عليه من مزيد جهل في كثيـر مـن الأعمال والأحـكام[2]. فإطلاق كلمـة جاهل على ذلك المجتمـع يُعزى إلى رؤيتهم المغلوطة والبعيدة عن العقل والمنطق.

ويذهب بعض المؤرّخين إلى القول بأنّ تسمية الجاهليّة الأولى الواردة في القرآن الكريـم يُراد منهـا الزمن الذي ولِد فيه النبيّ إبراهيـم عليه السلام، وقيل: إنّها الفترة ما بيـن آدم ونـوح عليهما السلام، وهي ثمانمائـة سنة، في حيـن ذهب بعض المعاصرين إلى القول بـأنّها الفترة ما بين عيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي تنصرف إليه الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر أحكام الجاهليّة، وظنُّ الجاهليّة، وحميّة الجاهليّة، وتبرّج الجاهليّة الأولى[3].

وكانـت القبيلة هـي الوحـدة السياسيّة عند العـرب في عصر ما قبـل الإسلام، فأفـراد القبيلـة ينتمون أو يعتقـدون أنّهم ينتمون إلى أصل واحـد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة الدم والعصبيّة للأهل والعشيرة.

(1) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسيّ، ج 1، ص44.
(2) ابن منظور: لسان العرب، 1303هـ، ج13، ص136.
(3) راجع سورة المائدة، الآية: 50، وسورة آل عمران، الآية: 154، وسورة الفتح، الآية: 26، وسورة الأحزاب، الآية: 33.

العصبيّة

المصداق الأبرز للعصبيّة عند العرب يتمثّل في عصبيّة الدم وهي أساس القرابة ومصدر الترابط، والانتماء إلى أب بعيد أو جدٍّ مشترك، من نسله تكوّنت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه. وعلى هذا الأساس كان شعور العرب بالقوميّة الشاملة ضعيفاً، ذلك لأنّ وعيها السياسيّ كان ضعيفاً محدوداً لا يتجاوز القبيلة.

وهكذا كان المجتمع العربيّ قبل الإسلام مجتمعاً مفكّكاً سياسيّاً ينقسم إلى وحدات متعدّدة قائمة بذاتها، تُمثّلها القبائل المختلفة.

نُظُم الحكم

كان لكلّ قبيلة مجلس من شيوخها، يرأسه رجل يَتمُّ اختياره من بين أفراد القبيلة، ويُطلقون عليه ألقاباً منها: الرئيس والشيخ والأمير والسيّد، ويُشترط أن تتوفّر فيه بعض الصفات، منها: الشجاعة والحكمة والصبر والكرم وسعة النفوذ.

ويتولّى سيّد القبيلة واجبات؛ أهمّها: قيادة الجيش، وأمر المفاوضات مع القبائل الأخرى، وفضّ النزاعات، والحُكم في الخلافات، وإعانة الضعفاء، والمحافظة على وحدة القبيلة. وكان مجلس القيادة يعقد اجتماعاته في دار الندوة، أو المنتدى، حيث تُناقش الأمور والمسائل التي تخصّ القبيلة كإعلان الحرب، أو إقرار السلم.

ولم يكن يخضع عرب الحجاز قبل ظهور الإسلام لسلطة حكومة، ولم يكن لهم نُظُم ولا تشكيل سياسيّ، ولهذا السبب كانت حياتهم تختلف اختلافاً كليّاً عمّا كانت عليه حياة المجتمعات في بلاد فارس وبلاد الروم، حيث الحكومة المركزية التي تتولّى شؤون الناس في كلّ أرجاء البلاد، ولهذا كان العرب يشعرون بالضعف مقابل الفرس والروم.

مفاسد المجتمع العربيّ

كان المجتمع العربيّ قائماً على:

1- التعصُّب القبليّ الأعمى؛ ينتصرون للقبيلة سواء أصابت أم أخطأت[1].

2- الثأر من القبيلة كلّها حتّى ولو كان المُخطئ فيها أحد أفرادها.

3- التفاخر بالأنساب[2] ولا سيّما بين العدنانيّين (عرب الشمال)، والقحطانيّين (عرب الجنوب).

4- الحروب والنهب والقتل؛ حيث لم يكن العربيّ يحمل مشاعر ودّية للناس خارج إطار قبيلته، سوى تحريمهم للقتال في الأشهر الحُرم (ذي القعدة، وذي الحجّة، ومحرّم، ورجب) وكان ذلك ممّا تمسّك به العرب من ملّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

5- ومن أبرز مظاهر الجهل عند عرب الجاهليّة نظرتهم إلى المرأة، التي حُرِمت من قيمتها الإنسانيّة ومن حقوقها الاجتماعيّة، ومن الإرث. وكان الرجل إذا مات وله زوجة تزوّجها ابنه من بعده إن لم تكن أمّه، لأنّها من المواريث، فضلاً عن وأدهم للبنات وهُنَّ أحياء لكونهنّ عاراً على القبيلة، ولعدم قدرة المرأة على القتال والدفاع عن نفسها في الحروب، وخوفاً من السبي.

الحالة الدينيّة في الجزيرة العربيّة

لم يكن سكان الجزيرة العربيّة جميعهم على دينٍ واحد إبّان ظهور الإسلام، فكان الغالب آنذاك عبادة الأصنام، كما كان هناك أتباع ديانات سماوية كالمسيحيّة

(1) رفض الإسلام العصبيّة الجاهليّة العمياء، واعتبرها نوعاً من التوجه الجاهليّ البعيد عن المنطق: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الفتح، الآية: 26). وقال رسول الله ﷺ: «من تعصّب أو تُعُصّب له فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»، ثواب الأعمال للصدوق، ص263.

(2) ولهذا السبب كانت هناك قيمة وأهميّة لعلم الأنساب عند العرب.

واليهوديّة والحنيفيّة والمانويّة والصابئة، يقطنون في بقاع شتّى من الجزيرة.

ولـم يَسْلَـم أيّ من تلك الأديـان من التشويش والتحريـف، فانطوت على كثير من المغالطات والتضليل من قِبَل معتنقيها أو غيرهم فنفرت النفوس منها.

وفيما يلي شرحٌ موجزٌ عن الأديان المعروفة والمتَّبعة آنذاك:

1 - الموحّدون:

الموحّـدون أو الحنفـاء[1]، هـم الذين كانوا يرفضـون عبادة الأصنـام، ويُؤمنون بوحدانيـة الله تعالى، وأحياناً بالبعـث والحساب ويوم القيامـة، وكان قسمٌ من هذه الجماعة من أتبـاع الديانة المسيحيّة، ومنهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وقُسّ بن ساعدة الأياديّ، وزهير بن أبي سلمى...

ونـزوع هؤلاء الأشخاص إلى التوحيد يرجـع إلى سلامة فطرتهم، والفراغ الدينيّ في ذلك المجتمع، وفقدان الديانتين المسيحيّة واليهوديّة لأصالتهما، وعدم قدرتهما علـى بثّ السكينة فـي النفوس، ولذلـك كان الموحِّدون يبحثون عـن الديانة الحقّة، ويقطعون المسافات للقاء علماء من النصارى واليهود، للتحقُّق منهم حول العلامات الواردة في الكتب السماويّة عن بعثة رسول الإسلام ﷺ. وغالباً ما كانوا يَصِلون إلى نتيجة مفيدة.

2 - المسيحيّة:

انتشـرت المسيحيّـة فـي بعض أجـزاء جزيرة العـرب، ففي الجنـوب عن طريق الحبشـة، وفي الشمال عن طريق سورية[2]، وشبه جزيـرة سيناء، إلّا أنّها لم تجتذب إليهـا أنصاراً كُثُـر، وكان من هؤلاء النصـارى: قيس بن ساعـدة، وحنظلة الطائي، وأُميّة بن أبي الصلت.

(1) حنيف وجمعها أحناف، تطلق هذه الكلمة على من يتَّبع دين النبيّ إبراهيم عليه السلام.

(2) كانت الشام آنذاك تحت سيطرة الدولة الرومانية الشرقية.

وتغلغلت المسيحيّة في اليمن منذ القرن الرابع الميلاديّ. وعند ظهور الإسلام كانت بعض أحياء العرب في اليمن على دين النصرانيّة. وأهمّ مواطن النصرانيّة في جزيرة العرب كان نجران، وهي مدينة خصبة عامرة بالسكان والتجارة[1].

وبقيت النصرانيّة رائجة في اليمن إلى أن حَكَمَ ذو نوّاس أرض اليمن، فوقع بالنصارى وقتلهم إرغاماً لهم على ترك دينهم، وعندما رأى ثباتهم أحرقهم في أخدود نارٍ حفره لهم. وقد استنجد النصارى بالحبشة فأنجدوهم، وغزوا بلاد العرب سنة 525م، وهزموا ذا نوّاس، وعاد المسيحيّون إلى الحُكم من جديد[2].

وكذلك انتشرت المسيحيّة في الحِيرة قرب الكوفة، بواسطة أسرى الحرب الرومانيّين... وأهمّ دليل يشهد على وجود هذا الدين في زمن نزول القرآن في جزيرة العرب، هو مباهلة رسول الله ﷺ قساوسة وفد نجران[3].

3 - اليهوديّة:

انتشرت اليهوديّة في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام لا سيّما في اليمن، وخيبر ويثرب، حيث بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع. وكان لليهود وزنهم السياسيّ والعسكريّ والاقتصاديّ، واستطاعوا أن يستهلكوا من الدولة الإسلاميّة فيما يُقارب سبع سنوات من الحروب والغزوات، حتّى استطاع الإسلام أن يقضي عليهم سياسيّاً وعسكريّاً. وقد كان اليهود هم المحرِّضون الفعليّون للمشركين على حرب رسول الله ﷺ، وهم المتآمرون الأكثر خبثاً ودهاءً مع الفرس على الدولة الإسلاميّة وعقيدتها.

(1) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسيّ، ج 1، ص64.

(2) يروي بعض المفسّرين أنّ الآيات 4-9 من سورة البروج نزلت في قتل النصارى، أو أنّ هذه الواقعة ممّا تنطبق عليه هذه الآيات (الميزان في تفسير القرآن: ج20/ص251 -257) حيث قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة البروج، الآيات: 3-9.

(3) الطباطبائي، محمّد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج3، ص228، إنتشارات إسماعيليان، قم، ط3، 1393هـ.

لقد كان اليهود يعتبرون أنفسهم شعبَ الله المختار، وأنّهم القادة الذين رشّحهم الله تعالى لقيادة البشريّة، ولذلك كانوا يَرَون بعثة الرسول ﷺ من العرب - لا من بني إسرائيل - انتزاعاً للقيادة من أيديهم وتسليمها لغيرهم، ولذلك كانت عداوتهم عنيفة، وكان حقدهم شديداً.

نشر اليهود في جزيرة العرب تعاليم التوراة (المُحرَّفة) وما جاء فيها حتّى تهوّد كثيرٌ من قبائل اليمن. ومن أشهر المتهوِّدين ذو نوّاس ـ ملك اليمن ـ وقد اشتُهر بتحمُّسه لليهوديّة واضطهاده لنصارى نجران، وإعلانه اليهوديّة ديناً رسميّاً[1].

4 - الوثنيّة:

كانت الوثنيّة منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة العربيّة، فكانت تُعتبر الديانة الأكثر أتباعاً وانتشاراً فيها، وهنا لا بدّ من ذكر النقاط التالية:

أ - **نشأة الوثنيّة:** يُنقل أنّ أوّل من أدخل عبادة الأصنام إلى مكّة عمرو بن لُحيّ الخُزاعي، الذي أُصيب بمرض الحكّة في جلده، فَوُصِفَ له الاغتسال بماءٍ حارّة في بلاد حوران، فذهب واغتسل بها فشفاه الله، ووجد الناس هناك يعبدون الأصنام، فحمل معه صنماً فنصبه في الكعبة الشريفة، وقيل غير ذلك[2].

ب - **أصنام العرب:** من أصنامهم مناة، اللاّت، العُزّى، هُبل (وهو الذي جاء به عمرو بن لُحيّ)، إساف ونائلة، ودّ، يغوث، يعوق، نَسر...

ج - **إيمان الوثنيّين بالله تعالى:** كان الوثنيّون يؤمنون بالله العليِّ الأعلى، وأنّه هو الخالق البارئ المصوّر، وقد حكى القرآن الكريم إيمانهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[3].

(1) راجع أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص 23 - 24 - 27، مكتبة النهضة العربيّة، القاهرة، 1964م، ط9.

(2) ومن ذلك أنّ أصل عبادة الأصنام حدثت عندما كَثُر أبناء إسماعيل عليه السلام واضطرّوا إلى أن يخرجوا من مكة طلباً للعيش، فكانوا يحملون عند خروجهم شيئاً من تراب الحرم الذي يحمل ذكرى الكعبة، أثر أبيهم إسماعيل، ثمّ حملوا هذا التراب للحفاظ عليه، وتطوّرت الذكرى إلى تقديس، فعبادة.

(3) سورة لقمان، الآية: 25.

وهـم لا يعبـدون هذه الأصنـام إلّا لتكون وسيلتهـم إلى الله، كما قـال تعالى على لسانهـم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، وبذلك وقعوا في مفارقات غريبة لا يقبلها عقل، ولا يُقرُّ بها منطق.

5 - الصابئة:

ظهرت هـذه الديانة في عهد حكم طهمورث، ومؤسّس هذه الديانة هو يوذاسف. وقيـل عنهـم بأنّهم أُناسٌ يوحّـدون الله ويُنزِّهونـه عن القبائح ويصفونـه بالسلب لا بالإيجـاب، كقولهـم: لا يُحدّ ولا يُرى ولا يَظلم ولا يجـور، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامـه، ويقولون بحياتها ونطقهـا وسمعها وبصرها، وكانت لهـم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الأشكال؛ مثل هيكل بعلبكّ لصنم الشمس، وهياكل في حرّان منسوبة إلى القمر. وقد آلت هذه الديانة في عصرنا إلى الانقراض[2].

هـذا بالإضافة إلـى الديانة المانويّة والزردشتية التي تُقدِّسـ النار (المجوسيّة) والمزدكيـة. وقـال بعضٌ: بأنّ هـذه الديانات لم تكـن منتشرة في الجزيـرة العربيّة باستثناء المانويّة.

كما وكان قسم من أهالي الجزيرة العربيّة يعبدون الجنّ والملائكة.

(1) سورة الزمر، الآية: 3.

(2) البيرونـيّ الخوارزمـيّ، أبو الريحان محمّد بن أحمد، الآثار الباقية، صـ 205، مطبعة المثنى، بغداد، وقيل بأنّهم ما زالوا موجودين حتى العصر الحالي في جنوب العراق.

خلاصة

- إنّ التعرُّف إلى تاريخ وجغرافيّة المنطقة التي وُلِد فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ونشأ وعاش في أرجائها حتّى بعثه الله برسالته؛ يُساعدنا على الوقوف على الدور الذي لعبه النبيّ ﷺ ورسالته المباركة، في النقلة الحضارية الكبرى لإنسان هذا الموطن، الذي كانت همومه وآماله تُؤطِّرها هموم وآمال القبيلة، حيث لم يعرف الدولة وقوانينها، ولم يحمل مظاهر الحضارة، حتّى إذا ظهر الرسول ﷺ، وأسّس الدولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، حدث التحوُّل التاريخي في حياة إنسان الجزيرة وجوارها.
- إنّ دراسة الظواهر والحالات التي كانت تكتنف المجتمع الجاهليّ قبل الإسلام، تُسهم في التعرُّف:

أوّلاً: إلى قِيَم هذا المجتمع وأحواله.

ثانياً: تُساعدنا أيضاً في التعرُّف إلى الدور الذي لعبته الرسالة في تحرير هذا الإنسان، ونقله بنورها إلى عالم أرحب هو عالم العدل وكرامة الإنسان والمساواة التي لم يكن ينعم بها الإنسان من قبل.

- كانت الحالة السياسيّة للمجتمع العربيّ الجاهليّ قبل الإسلام عبارة عن الحُكم القَبَليّ، فالقبيلة هي الوحدة السياسيّة، وأفراد القبيلة ينتمون إلى أصلٍ واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة الدم والعصبيّة للعشيرة، وهذا ما أدّى إلى وجود الانحلال والتفكّك في ذلك المجتمع، ولم يكن هناك وجود لسلطة حكوميّة ولا نُظُم ولا تشكيل سياسيّ، والحاكم السياسيّ هو التعصُّب القبليّ الأعمى. وهذا ما رفضه الإسلام بدعوته.
- تعدّدت الأديان التي كانت منتشرة قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربيّة والمناطق المحيطة بها، فبالإضافة إلى الموحِّدين والمسيحيّة واليهوديّة كانت هناك المجوسيّة، وكانت الوثنيّة أكثر انتشاراً في أنحاء الجزيرة العربيّة.

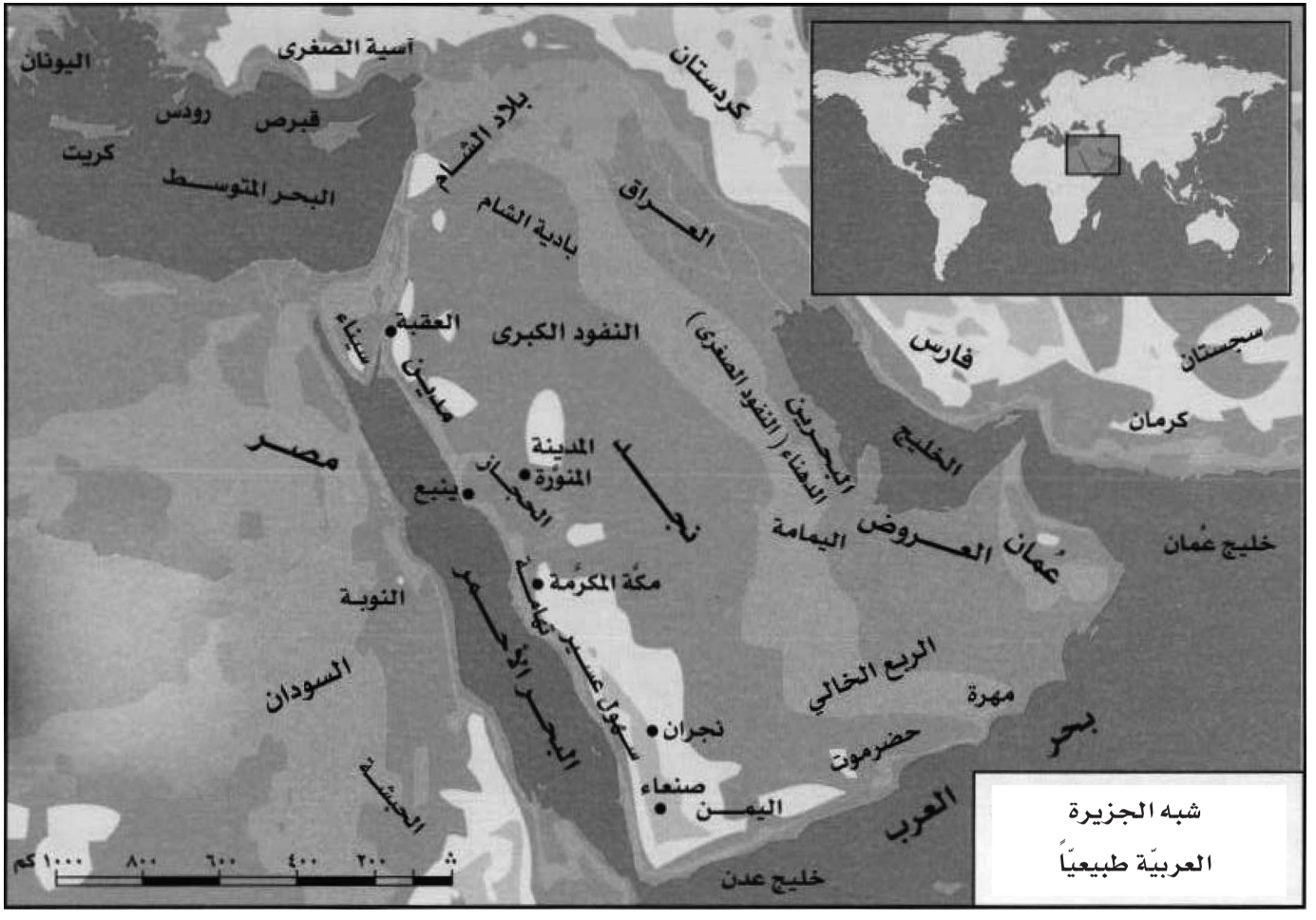
اليونان
آسية الصغرى
كردستان
قبرص
رودس
كريت
البحر المتوسط
بلاد الشام
بادية الشام
العراق
العقبة
سيناء
النفود الكبرى
النفود الصغرى
فارس
سجستان
مدين
البحرين
الدهناء
كرمان
الخليج
مصر
المدينة المنورة
ينبع
الحجاز
نجد
اليمامة
عُمان
العروض
خليج عُمان
مكة المكرمة
تهامة
النوبة
سهول عسير
الربع الخالي
مهرة
السودان
البحر الأحمر
نجران
حضرموت
بحر العرب
صنعاء
اليمن
الحبشة
خليج عدن
١٠٠٠ كم ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠
شبه الجزيرة العربيّة طبيعيّاً

منزلة النبيّ ﷺ الأخلاقيّة في العهد الجاهليّ

إنّ الصيغة القرآنيّة، لمواصفات الشخصيّة المؤمنة بنماذجها المختلفة، قد أخذت طريقها للتجسيد العمليّ في شخصيّة رسول الله ﷺ.

فشخصيّة رسول الله ﷺ قد مثّلت قمّة التسلسل، بالنسبة لدرجات الشخصيّة الإسلاميّة، التي توجد عادة في دنيا الإسلام، فكان ﷺ عظيماً في فكره ووعيه، قمّة في عبادته وتعلّقه بربّه الأعلى، رائداً في أساليب تعامله مع أسرته والناس جميعاً، مثاليّاً في حسم الموقف، والصدق في المواطن، ومواجهة المِحن، فما من فضيلة إلّا ورسول الله ﷺ سابقٌ إليها، وما من مكرُمة إلّا وهو متقلّد لها.

ومهما قيل من ثناء أخلاقيّاته السامية قديماً وحديثاً، فإن ثناء الله تعالى عليه في كتابه العزيز، يظلّ أدقّ تعبير وأصدق وصف لمواصفات شخصيّته العظيمة دون سواه.

فقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] عجز كلّ قلم وكلّ تصوّر وبيان عن تحديد عظمته، فهو شهادة من الله سبحانه وتعالى على عظمة أخلاق الرسول ﷺ، وسمو سجاياه، وعلوّ شأنه، في مضمار التعامل مع ربّه ونفسه ومجتمعه، بناءً على أنّ الأخلاق مفهوم شامل لجميع مظاهر السلوك الإنسانيّ.

وقبل أن يتحدّث القرآن عن عظمة أخلاقه، فقد نطق الكفّار والمشركون بهذه الحقيقة، والنبيّ ﷺ لم يُبعث بعد، فاتّصاف النبيّ ﷺ بالخُلُق العظيم، لم يكن وليد الفترة التي بُعث فيها، أو من إفرازات تلك المرحلة تمشّياً مع أهميّة الدور الملقى على عاتقه، لا، بل التاريخ يذكر أنّ النبيّ ﷺ كان ذا منزلة أخلاقيّة عظيمة في العهد الجاهليّ، وكان محلّ إعجاب وتقدير قومه ومجتمعه، بل ومضرب المثل في

(1) سورة القلم، الآية: 4.

ذلـك. وقـد شهد الكفّار أنفسهـم لرسول اللّه ﷺ بصدق اللهجـة والأمانة والعفاف ونزاهة الذات.

فقـد روي أنّ الأحنـس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، تُخبرني عن محمّد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: واللّه إنّ محمّداً لصادق وما كذب قطّ.

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثـاً، وأعظمكم أمانة، حتّى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر؟! لا واللّه ما هو بساحر.

ولمّا بعث رسول اللّه ﷺ إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، أحضر قيصر أبا سفيان وسألـه بعض الأسئلة مستفسراً عن النبيّ ﷺ، وممّـا سأله، قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكـذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلت والـكلام لأبي سفيان: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: كيف عقله ورأيه؟ قلت: لم نعب له عقلاً ولا رأياً قطّ..

وروى الطبـريّ: كانـت قريشـ تُسمّـي رسول اللّه ﷺ قبـل أن ينـزل عليه الوحي [الأمين].

ورُوي عـن أبـي طالب (رضـوان اللّه عليه) فـي حديث عن سيـرة النبيّ ﷺ في الجاهليّـة قال: لقد كنت أسمع منـه إذا ذهب من الليل كلاماً يُعجبُني، وكنّا لا نُسمّي علـى الطَّعـام والشَّراب حتّـى سمعتُه يقول: بسـم اللّه الأحد، ثمّ يأكل فـإذا فرغ من طعامـه قال: الحمـد للّه كثيراً، فتعجّبت منـه، وكنت ربّما أتيت غفلـة فأرى من لدن رأسـه نـوراً ممدوداً قد بلغ السماء، ثمّ لم أرَ منـه كذبة قطّ ولا جاهليّة قطّ، ولا رأيته يضحـك فـي غير موضع الضحـك، ولا وقف مع صبيـان في لعـب، ولا التفت إليهم، وكانت الوحدة أحبّ إليه والتواضع».

الدرس الثاني

السيرة ومصادرها الأصيلة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يطّلع على التشويه والتحريف الذي تعرّضت له السيرة النبويّة.

2- يُعدّد أهمّ مصادر السيرة النبويّة.

3- يستذكر الضوابط والقواعد الصحيحة للسيرة.

معنى السِّيرة والهدف من دراستها

كلمة السِّيرة مشتقّة من كلمة السَّير، والسَّير يعني المشي والحركة، بينما السِّيرة تعني طريقة المشي والحركة والسلوك.

وبعبـارة أُخرى: السيرة عبارة عن الأسلوب والنمط الذي يتّبعه الإنسان في حياته وفي أعماله اليومية.

وعندما نبحث في السيرة النبويّة، فإنّنا نُريد التعرُّف إلى الأسلوب والنمط الذي كان يتّبعه النبيّ محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله اليوميّة، للوصول إلى أهدافه النبيلة، مثلاً: كيف كان سلوكه؟ كيف كانت أخلاقه وعلاقاته بأصحابِه وأهله ومجتمعه؟ كيف كان يُبلّغ رسالته؟ ما هي الأحداث التي واجهها في طريق الدعوة إلى الله؟ وكيف كان يتعامل معها؟ كيف كان يقود مجتمعه إداريّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وتربويّاً وتعليميّاً؟ وغير ذلك.

إنّ الكشف عن جوانب شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما يرتبط بحياته ومواقفه وسلوكه وأوضاعه وطريقة تعامله مع الأحداث والتحدّيات والمستجدّات وغير ذلك، هو ما يُراد بحثه عادة في السيرة النبويّة[1].

(1) تفـرّدت مدرسـة أهل البيـت عليهم السلام بالحثّ على تدويـن السنّة الشريفة والاهتمـام بحفظها ونشرهـا، بالرغم من حظر التدوين الذي كان يمارس على الصحابة والتابعين تحت شعار: يكفيكم كتاب الله تعالى، ومن كان عنده شيء غير القرآن فليمحُه!

وقد اهتمّ القرآن الكريم ببيان سيرة الأنبياء عليهم السلام والصلحاء، ودعا إلى الاقتداء بسيرهم، والاعتبار بسيرة الغابرين والاتّعاظ بها، كما دعا وأكّد على الاهتمام بسيرة خاتم الأنبياء وسيّدهم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحثّ المسلمين على الاقتداء برسوله الكريم في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

ثمّ أمر المسلمين جميعاً بالالتزام بما يصدر عن رسوله الذي لا ينطق عن الهوى بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2].

ومن المعلوم أنّ السيرة العظيمة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد تعرّضت للكثير من الجعل والافتراء والتشويه على أيدي الكثيرين من حكّام ومندسّين وغيرهم.. حيث حاول هؤلاء النيل من شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته. وقد نُفِّذت هذه الخطّة عن طريق دسّ نصوص مُختَلقة ومزيَّفة في كتب السيرة والتاريخ تُسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتنسب إليه ما لا يليق به.

مصادر السيرة النبويّة

إذا عرفنا أهميّة دراسة السيرة وما لحق بها من تشويش وتحريف، كان من الضروريّ جدّاً أن نُكوِّن صورةً واضحةً ونقيّة عن حياة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن نعتمد على مصادر صحيحة، ومعايير وضوابط تكون قادرةً على إعطائنا الصورة الحقيقيّة الأكثر نقاءاً وصفاءاً عن شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتكون قادرة أيضاً على تمييز الجانب المُصطنَع والمُزيَّف عن الصحيح وإبعاده عن محيطنا الفكريّ والعمليّ بصورة كاملة، طبق ضوابط ومعايير حقيقيّة.

هناك عدّة مصادر يُمكننا بالاعتماد عليها أن نستخلص معالم سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتفاصيل حياته وهي:

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.
(2) سورة الحشر، الآية: 7.

1- القرآن الكريم:

لقد قدّم القـرآن الكريم صورةً واضحة ورائعة عـن شخصيّة النبيّ ﷺ وصفاته وخصائصـه ومواقفه في كثير من السور والآيـات. ويستطيع قارئُ القرآن من خلال التدبُّـر فـي الآيات التي نزلـت في شـأنِ رسـول الله، أنْ يُحيط بالكثيـر من جوانب شخصيّته وحياته، مُنذ أن بعثه الله وإلى أن فارق هذه الدنيا.

فقـد أشـار القرآن مثـلاً إلى مكانـة النبيّ (ومنزلتـه وعظمتـه) ﷺ، في سور: الحجرات والنور والأحزاب وغيرها، وأشار إلى أسمائه وألقابه ﷺ في سور: الصفّ وآل عمـران والمائدة، وإلى صفاتـه وخصائصه ﷺ، كالعصمـة والطهارة والرأفة والرحمة والعطف والشجاعة، في كلٍّ من سور: آل عمران والتوبة والأحزاب والأنبياء وغيرهـا، وأشـار القرآن إلـى أخلاقه وصبـره وثباته ﷺ في مواقع التحـدّي، وإلى طريقـة تبليغه للرسالـة، وإلى مواقفه من عدم استجابة قومه لدعوته وغير ذلك ممّا يرتبط بحياته وسيرته، في كثير من الآيات والسور.

فالرجـوع إلى نفس القـرآن لاستخراج سيرة النبيّ يُعتبر مـن أوثق وأصحّ الطرق والمصادر لدراسة السيرة النبويّة الصحيحة.

2- النصوصُ الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

إنّ النصوص الـواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تُعتبر فـي الأهميّة بعد القرآن الكريم؛ لأنّ أهل البيت عليهم السلام أدرى بما فيه، وهم الأئمّة المعصومون الذين يحملون العلم الإلهيّ ... وعندهم علم الكتاب وعلم ما كان ويكون بإذن الله تعالى.

فقـد ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام مئات النصوص والروايات، التي تحدّثت عن حياة رسول الله العامّة والأحداث الكبرى التي عاشها في حياته، وعن سيرته الذاتيّة والخاصّة.

3- الروايات التاريخيّة المرويّة بالتواتر عن المسلمين الأوّلين:

يوجـد العديد من النصوص المرويّة عن الأثبات من الصحابة الذين لا يميل بهم هوى عن جـادّة الحقّ، والتي تتحدّث عن سيرة النبيّ ﷺ، تُعتبر من مصادر السيرة والتاريخ إذا ثبتت صحّتها بالتواتر أو بإحدى وسائل الإثبات الأخرى.

ضوابط السيرة الصحيحة

أهمُّ الضوابط والقواعد التي ينبغي اعتمادها في فهم السيرة الصحيحة وهي:

1- دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث

إنَّ أوّل مـا ينبغـي ملاحظته في الحديـث المنقول السند: هو عبـارةٌ عن مجموع أسمـاء الأشخاص الذين نقلـوا لنا الحديث أو الحدث التاريخـيّ، فلا بُدّ من دراسة أحوال وأوضـاع هؤلاء الرواة لمعرفـة ميولهم وارتباطاتهم السياسيّـة والمصلحيّة، ولمعرفـة مـدى صدقهم ودقّتهـم فيما أخبرونـا به، لتحديـد مدى إمكانيّـة الوثوق والاعتماد على نقلهم.

وطبيعيٌّ أنّ من عُرِفَ عنه أنّه يكذب في خبره أو لا يُدقِّق في نقله، لا يُمكن الاعتماد عليه، إلّا بعد أن نتأكّد من صحّة ما نقله من مصادر وجهات أخرى.

وكذلك من عُرِف عنه أنه ينساقُ وراء أهوائه السياسيّة أو المذهبيّة أو المصلحيّة، لا يُمكن الأخذ بما ينقله لنا؛ لأنّه يكون بذلك قد أخلّ بدرجة الوثوق والاطمئنان.

2- انسجام مضمون النصّ مع صفات وخصائص الشخصيّة النبويّة

فلمـا ثبت لدينـا بالدليل القطعيّ الصحيـح؛ أنّ شخصيّة النبـيّ ﷺ هي في أعلى درجـات الطُّهـر والعصمـة والحكمـة والشجاعـة، وأنّه يتحلّى بـكلّ الصفـات النبيلة والفاضلة، جامعاً لكلّ القيم الإنسانيّة السامية، فلا بُدّ من جعل كلّ ذلك معياراً وميزاناً لأيّ نصٍّ يُروى بشأنه، أو يُريد أن يُسجّل لنا قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو موقفاً له ﷺ.

فـإذا لم يكن النصُّ منسجماً مع هـذه الخصائـص والمميّزات الثابتـة بالدليل القطعيّ الصحيح فإنّه لا يُمكن قبوله، كما لو نسب النصُّ -والعياذ بالله-، الرذيلة أو الفجور لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو عبادة الأصنام، أو التصرّفات التي تُعبّر عن جهله أو عدم اتّزانه، فإنّنا لا نتردّد في رفض مثل هذا النص. كذلك لا نقبل أن تُنسب إلى أحدٍ من أئمّة أهل البيت عليهم السلام تصرُّفات لا تليق بمقامهم الثابت.

3- عرضُ النصوص على القرآن الكريم

هذه قاعدةٌ لا بُدَّ أن نعتمدها في كلّ الأحاديث المنقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أحد أئمّـة أهل البيت عليهم السلام سواء أكانت تاريخيّة أم فقهيّة أم أخلاقيّة أم غير ذلك، فما وافق كتاب الله نأخذ به وما خالفه نتركه.

فقد رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**تكثُر لكم الأحاديث بعدي، فإذا رُوي لكم عنّي حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلُوه وما خالفَ فردُّوه**»[1].

وعـن الإمـام الصادق عليه السلام أنّه قـال: «**ما لم يُوافق مـن الحديث القـرآنَ فهو زُخرُفٌ**»[2].

4- عدم التناقض والتنافي بين النصوص

إنّ وجود التناقض أو التعارض فيما بينها يُشير إلى وجود نصّ مجهول، أو تعرّض النصّ لتصـرُّف ما أزاله عـن وجهته الصحيحـة، الأمر الذي يستدعـي مزيداً من الانتبـاه، وبذل المزيد من الجهـد لمعرفة الصحيح من المزيَّـف منها. وقد وضعت قواعد خاصة لمعالجة تعارض الأدلة في علم الأصول وغيره.

(1) الشيخ الأميني، الغدير، ج8، ص26.

(2) الكلينـي، محمـد بن يعقـوب، الكافي، ج1، ص69، تصحيـح وتعليق علي أكبر الغفـاري، الناشر دار الكتـاب الإسلامية - طهران، مطبعة الحيدري، 1363 ش، ط5، باب الأخذ بالسنة والشواهد الكتاب.

5- عدم مخالفة النصّ للواقع المحسوس

كما لو ادّعى النصّ أنّ أقرب طريق من مكّة إلى المدينة يمرّ عبر الأندلس.

6- عدم مخالفة البديهيّات والضرورات العقليّة الثابتة

ومن ذلك قولهم: إنّ الله عادل وحكيم، ولكنه يُجبر عباده على أفعالهم، ثمّ يُعاقبهم عليها. وقولهم: إنّه تعالى لا يحدّه مكان ولا جهة، ثمّ يقولون إنّ له ساقاً وقدماً وأصابع وما إلى ذلك.

7- عدم مخالفة الحقائق العلميّة الثابتة بالأدلّة القطعيّة

8- عدم التناقض مع الثوابت التاريخيّة القطعيّة

9- عدم مخالفة الأحكام العقليّة والفطريّة السليمة

ومن ذلك حكم العقل بوجوب عصمة النبيّ ﷺ والإمام عليه السلام عن الخطأ، فالنصّ الذي يُريد أن ينسب إلى النبيّ ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام خطأً معيّناً، لا نتردّد في رفضه ولا نشكّ في أنّه من الأخبار المصطنعة.

خلاصة

- إنّ سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام هي طريقتهم ومنهجهم في الحياة، ويتجلّى ذلك في مجموع أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم. وسيرة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم هي الأسلوب والنمط الذي كان يتّبعه في أعماله اليومية من خلال سلوكه وأخلاقه وعلاقاته بالآخرين.
- المصادر الأساسية التي يُمكن الاعتماد عليها للتعرُّف إلى معالم شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته هي:

1- القرآن الكريم.

2- النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي عرضت سيرة وحياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

3- الروايات التاريخيّة المرويّة بالتواتر عن المسلمين الأوّلين.

هناك ضوابط ينبغي اعتمادها في تمييز النصّ الصحيح من الفاسد:

1- دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث.

2- انسجام النصّ الحاكي عن سلوك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع صفاته وخصائصه.

3- عرض النصّ التاريخيّ على القرآن الكريم.

4 - 5 - 6 - 7 - 8 - عدم التناقض بين النصوص، وعدم مخالفتها للواقع وللبديهيّات والضرورات العقليّة وللحقائق العلميّة والثوابت التاريخيّة.

9 - موافقة النصّ الصادر عن المعصوم للعقل والفطرة.

التصوير القرآنيّ للخُلُق العظيم

لا شكّ أنّ أصدق شاهد على عظمة أخلاق رسول الله ﷺ هو القرآن الكريم، وهو كلام الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[1]. فقد أشاد القرآن كثيراً بأخلاق صاحب الرسالة ﷺ، وكثُرت فيه الآيات التي تتحدث عن شخصيّته الأخلاقيّة وخصائصه وصفاته الفاضلة، ونحن سنستعرض ما تيسّر من هذه الآيات:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2].

فالآية الكريمة تحكي لنا جانب العفو والرحمة والرفق واللين في سلوك النبيّ ﷺ وتعامله مع الآخرين.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

لقد وصفت هذه الآية الرسول الأعظم ﷺ بأوصاف تكشف عن مدى تأثُّره واهتمامه بالمسلمين وشؤونهم وحرصه عليهم، وتُعبِّر عن مدى شفقته ورحمته بهم، وكيف أنّه ﷺ حين يُصيب الواحد منهم بعض المشقّة والتعب فإن ظلالاً من الأسى والحزن تُخيّم عليه ﷺ.

(1) سورة النساء، الآية: 122.
(2) سورة آل عمران، الآية: 195.
(3) سورة التوبة، الآية: 128.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ ﴾[1].

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ أدَّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال:** ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾»[3].

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4].

فقد رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**أدّبني ربي تأديباً حسناً إذ قال:** ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ **فلمّا قبلت ذلك منه قال:** ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾»[5].

(1) سورة التوبة، الآية: 62.
(2) سورة القلم، الآية: 6.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص266.
(4) سورة الأعراف، الآية:199.
(5) تفسير القرطبي، ج18، ص228.

الدرس الثالث

سيرة رسول اللّه ﷺ

-من الولادة إلى الزواج-

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى نسب رسول اللّه ﷺ وطفولته.

2- يُعدِّد أسفار النبيّ ﷺ قبل البعثة ويفهم أهدافها.

3- يسرد قصّة زواج النبيّ ﷺ من السيّدة خديجة عليها السلام.

نسب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصيّ، بن كلّاب، بن مُرّة... بن عدنان... ابن النبيّ إسماعيل عليه السلام ابن النبيّ إبراهيم عليه السلام.

والمرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان إذا انتسب لم يُجاوز نسبه معد بن عدنان ثمّ يُمسك، وأوصى الآخرين بذلك بقوله: «**إذا بلغ نسبي إلى عدنان فأمسكوا**»[1]. وقد نفى صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكره النسّابون من أسماء أجداده بين عدنان وإسماعيل[2].

واستناداً إلى التقسيم القَبَليّ عند العرب، تُقسَّم العرب بشكلٍ عامّ إلى الشّق «**القحطانيّ**» و«**العدنانيّ**». وتُعتبر قريش من العرب العدنانيّين بسبب انتسابها إلى «**عدنان**». كما أنّ جدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هاشم بن عبد مناف تنتسب إليه أشرف أُسرة في مكّة وهي أُسرة بني هاشم.

وكانت ولادته المباركة في مكّة المكرمّة، في شُعب أبي طالب، يوم الجمعة في السابع عشر من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل الموافق لسنة 571 للميلاد[3].

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ج1، ص155، قم، المطبعة العلميّة. والمجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، طهران، دار الكتب الإسلاميّة،ج15،ص105.

(2) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص155.

(3) توفّي عبد الله والد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عند عودته من سفر تجارة من الشام، وكان صلى الله عليه وآله وسلم له من العمر أشهر. ورُوي أنّه توفّي قبل ولادته صلى الله عليه وآله وسلم.

ولـم يرتضع ﷺ مـن أمّه سوى ثلاثـة أيّام، ثـمّ حظيت بشـرف إرضاعه حليمة السعديّـة؛ التـي كانت تُقدِّمه على أولادهـا لما وجدت فيه من الخيـر والبركة، وبقي عندها في البادية إلى أن بلغ سنّ الخامسة، حيث عاد إلى أهله ليكون في كفالة جدّه عبد المطّلب، ومن ثمّ في رعاية عمّه أبي طالب[1].

النبيّ في كفالة جدّه

سـار النبيّ ﷺ برفقة أمّـه آمنة بنت وهب في قافلة إلى يثـرب لزيارة قبر والده عبد الله، وفي طريق العودة إلى مكّة توفّيت والدته ودُفنت في منطقة الأبواء، فجاؤوا به إلى جدّه عبد المطّلب.

كان آبـاء وأجـداد الرسـول محمّـد ﷺ موحِّدين، ابتـداءً من أبيه عبـد الله إلى النبـيّ آدم عليه السلام، ولم يكن فيهم مشرك، ومنهم جدّه عبد المطّلب، الذي كان سيّداً وشريفـاً وجواداً في قريش، وعاش ﷺ في كفالتـه، وكان يرعاه خير رعاية، ولا يأكل طعاماً إلّا إذا حضر، ويُفضّله على أبنائه.

ويبـدو أنّه كان عارفاً بنبوّتـه ﷺ، من خلال صفاته والأحـداث التي رافقته منذ ولادته، وكذلك من خلال البشائر والأخبار التي كانت تُنبئ بمستقبله ونبوّته ﷺ.

وكان عبـد المطّلب من المعتقدين بالمعاد والحساب ويقول: **«والله إنّ وراء هذه الـدار داراً يُجزى فيهـا المُحسن بإحسانه، ويُعاقب المُسيء بإساءته»**[2]. ولم يكن متعصبـاً للقبيلة، وكان يحثّ أبناءه على التحلّي بمـكارم الأخلاق، وتُؤثر عنه سنن جـاء القرآن والسنّة بأكثرها، منها تحريم الخمر والزنا، وقطع يد السارق، والنهي عن وأد البنات، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، والوفاء بالنذور، وأن لا تُنكح ذات محرم...

(1) راجع: العلامة المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 15، ص401، مؤسسة الوفاء – لبنان، 1983م، ط2.
(2) الألوسي البغدادي، محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ج 1، ص324.

وفاة عبد المطّلب ورعاية أبي طالب للنبي ﷺ

توفّـي عبد المطّلب ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين، فأوصى به إلى عمّه أبي طالـب، وذلك لأنّ عبد الله أبا رسـول الله ﷺ وأبا طالب أخوَان لأمّ. فكفل رسولَ الله ﷺ بعـد وفـاة عبد المطّلب أبـو طالب عمّه، فكان خير كافـل لعطفه وحنانه عليـه ﷺ، وكان أبو طالب سيّـداً شريفاً مطاعاً، وكان سيّد قومه في زمانه. وكان يُحبّ النبيّ ﷺ حُبّاً شديداً.

وربّته فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب، وكانت تُحبّه كثيراً وتحنو عليه، وكان ﷺ يصفها بأنّها أمّه.

السفر إلى الشام ونبوءة الراهب

تحـدّث المؤرّخـون عن رحلتيـن للنبيّ ﷺ إلى الشـام، إحداهمـا بصحبة عمّه، والأخرى: بصحبة غلام لخديجة في تجارة لها.

فـي الرحلـة الأولـى: كان عمر النبيّ ﷺ اثنتـي عشرة سنة، وكان مـع عمّه أبي طالـب ضمن قافلة تجاريّة لقريش، وفي الطريـق توقّفت القافلة في منطقة بُصرى، وكان فيهـا راهب يُدعى بحيرا، وقد اتّفق أن التقى الراهب قافلة قريش ولفتت نظره شخصيّـة النبيّ ﷺ وراح يتـأوّل ويُحدِّق في صفاته وملامحـه[1]، خاصّة بعدما رأى أنّ سحابـة من الغيم تُرافـق محمّداً ﷺ أينما جلس لتحميه من حـرّ الشمس، فأتى الراهـب أبا طالب وبشّره بأنّ ابن أخيه نبيّ هـذه الأمّة، وأخبره بما سيكون من أمره بعدما كان قد كشف عن ظهره ورأى خاتم النبوّة بين كتفيه، ووجد فيه العلامات التي وصفته بها التوراة والأناجيل وغيرها[2].

وتذكـر النصوص أنّ بحيرا أصرّ على أبي طالب بـأن يعود به إلى مكّة، وأن يُبقيه

(1) ابن هشام، عبد الملك، سيرة النبيّ، ج1، ص189، تحقيق مصطفى السقاء، القاهرة، مطبعة الحلبي، 1355هـ.
(2) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبويّة،ج 1، ص193.

تحـت رقابتـه خوفاً عليه من اليهـود وغيرهم، فقطع أبو طالب رحلتـه ورجع به إلى مكّة.

وفي الرحلة الثانية: كان عمر النبيّ ﷺ خمساً وعشرين سنة، وهذا السفر كان لأجـل عمل تجاريّ مـع السيّدة خديجة بنت خويلـد قبل أن يتزوّج بهـا، وبإشارة من أبي طالب بسبـب الأوضاع المعيشيّة الصعبة آنذاك، وكانت هذه التجارة مع السيّدة خديجة على نحو المضاربة والمشاركة.

النبيّ محمّد ﷺ في شبابه

اتفـق المؤرّخـون على أنّ محمّـداً ﷺ أصبح في مطلع شبابـه موضع احترام في مجتمعه، لما كان يمتلكه من وعي، وحِكمة، وبُعد نظر.

وقد اشتُهر بسموّ الأخلاق، وكرم النفس، والصدق والأمانة، حتّى عُرف بين قومه بالصـادق الأمين، كما اشتُهر برجاحة عقله، وصوابيّـة رأيه، حتّى وَجَدَ فيه المكّيّون والقرشيّـون سيّـداً من سـادات العرب الموهوبيـن، ومرجعاً لهم فـي المهمّات وحلّ المشكلات والخصومات.

وذكر المؤرِّخون: أنّ الناس كانوا يتحاكمون إلى النبيّ ﷺ في الجاهليّة، لأنّه كان لا يُـداري ولا يُماري، ولـه مع قومه تجـارب سياسيّة واجتماعيّة، حتّـى شارك بشكلٍ فاعـل ومؤثّر في حَدَثَيـن تاريخيّين حصلا قبل البعثة هما: حلـف الفضول، وتجديد بناء الكعبة.

حلف الفضول:

وهـو أشرف حلـف عُقد بين زعماء عدد من بطون قريشـ[1]، وكان نتيجةً لسلسلة مـن حوادث الاعتداء على أموال وأعراض بعض الوافدين إلى مكّة في موسم الحج. فدعا الزبير بن عبد المطّلب إلى إقامة تحالف بين قبائل قريش، بهدف مواجهة كلّ مـن يعتدي على الآخرين، فاستجاب لدعوته بنو هاشم، وبنو عبد المطّلب، وبنو أسد وغيرهـم، وعقدوا اجتماعاً فـي دار عبد الله بن جدعان، تحالفـوا فيه على محاربة الظلم والفساد، والانتصار للمظلوم والدفاع عن الحقّ، وقد سُمّي بحلف الفضول، لأنّ قريشـاً قالت بعد إبرامه: هذا فضـول من الحلف، وقيل: لأنّ ثلاثة ممّن اشتركوا فيه كانـوا يُعرفون باسم الفضل، وهم الفضل بن مشاعـة، والفضل بن بضاعة، والفضل بن قضاعة. وقد حضر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الحلف المذكور وشارك فيه، وكان يتجاوز العشرين من عمره الشريف[2].

وكانـت مشاركته صلى الله عليه وآله وسلم فـي هذا الحلف عمـلاً نبيلاً، ونوعاً مـن الدفاع عن حقوق الإنسـان في ذلك المجتمع الجاهليّ، ففـي الوقت الذي كان فيه أترابه من أبناء مكّة منكبّيـن على الشـراب واللذائذ، ومنغمسين فـي اللهو واللعـب، كان هو يحضر هذا الحلـف إلـى جانب أكابر قريش، وقد أثنـى على هذا الحلف بعد بِعْثَتـه وذَكَرَه بفخرٍ قائلاً: **«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أنّ لي به حُمْر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت»**[3].

وهـذا الكلام يدلّ على أنّ هذا الحِلْف ينسجـم مع أهداف الإسلام، وعلى واقعية

(1) سبـب هـذا الحلـف أنّ رجلاً من زُبيد قـدم مكّة ببضاعة فاشتراها منـه العاص بن وائل من بني سهـم، فحبس عنه حقّه. فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف، فأبوا معونة الزبيدي على ابن وائل وانتهروه. وعندما رأى الزبيدي إجتماع زعماء قريش إلى جانب الكعبة، صعد على جبل أبي قبيس واستغاث، وعلى أثر ذلك دعا الزبير بن عبد المطّلب وكبار القوم إلى اجتماع نتج عنه هذا الحلف.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص13.

(3) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج83، هامش ص 256.

الإسلام حيث إنّه ينظر إلى مضمون العمل وقيمته وليس إلى شكله وصورته، حتّى ولو قام به أهل الشرك، وعلى استجابة الإسلام لكلّ عمل إيجابي فيه خير الإنسان ومصلحته، وانفتاحه على الآخرين.

نصب الحجر الأسود:

أثناء ولاية قريش على الكعبة، وقبل النبوّة بخمس سنوات، أصاب الكعبة التصدُّع من آثار السيول، فاجتمعت قريش على أثر ذلك وقرّرت هدمها وتجديد بنائها، ورصدوا لذلك ما تحتاجه من نفقات.

يقول المؤرّخون: إنّ قريشاً وزّعت الهدم والبناء على القبائل، فكان لكلّ قبيلة جهة معيّنة، وكان الوليد بن المغيرة أوّل من بادر إلى هدمها بعد أن تهيّب غيره من فعل ذلك. ولمّا بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يرفعه إلى موضعه، وأصبحت كلّ قبيلة تُريد أن تنال هي هذا الشرف، لأنّهم كانوا يَرَون أنّ من يضع الحجر الأسود في مكانه تكون له السيادة والزعامة.

وكاد الأمر يُؤدّي بهم إلى فتنة كبيرة حيثُ استعدّوا للقتال، وانضمّ كلّ حليف إلى حليفه، ولمّا وصلوا إلى حدٍّ خطير اقترح عليهم أبو أميّة بن المغيرة أن يُحكِّموا في هذا النزاع أوّل داخل عليهم، فكان محمّد بن عبد الله أوّل الوافدين، فلمّا رأَوه استبشروا بقدومه وقالوا: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حَكَمَاً.

فطلب منهم النبيّ ﷺ أن يُحضروا ثوباً فأتَوا له بثوبٍ كبير، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده، ثمّ التفت إلى شيوخهم وقال: «**لتأخُذ كلّ قبيلة بطرف من الثوب ثمّ ارفعوه جميعاً**» فاستحسنوا ذلك، ووجدوا فيه حلّاً يحفظ حقوق الجميع، ولا يُعطي لأحد امتيازاً على الآخر، ففعلوا ما أمرهم به، فلما أصبح الحجر بمحاذاة الموضع

المُخصّص له، أخذه رسول الله بيده الكريمة ووضعه مكانه[1].

وهـذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ ويكشف عن المكانـة الاجتماعيّة الخاصّة التي كان يحتلّها النبيّ ﷺ في نفوس الناس في مكّة.

زواجه من خديجة

كانت السيّدة خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكانت تُدعى في الجاهليّة بالطاهرة وسيّدة قريش، وقد تزوّجها النبيّ ﷺ وله من العمر خمس وعشـرون سنة، وقيل غير ذلك، وتُشير النصوص إلـى أنّ خديجة هي التي بادرت أوّلاً وأبْـدَت رغبتها في الزواج مـن محمّد ﷺ بعدما رأت فيه من الصفات النبيلة مـا لم تره في غيره. ويُرجِّـح بعض المؤرّخين أن يكون عمـر خديجة حين زواجها مـن النبيّ ﷺ ثمانية وعشرين عامـاً وليس أكثر من ذلك، كما أنّها لم تتزوّج قبله بأحدٍ قطّ[2].

(1) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج15، ص337 -338.

(2) مرتضى، السيّد جعفر، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم ﷺ، ج1، ص121.

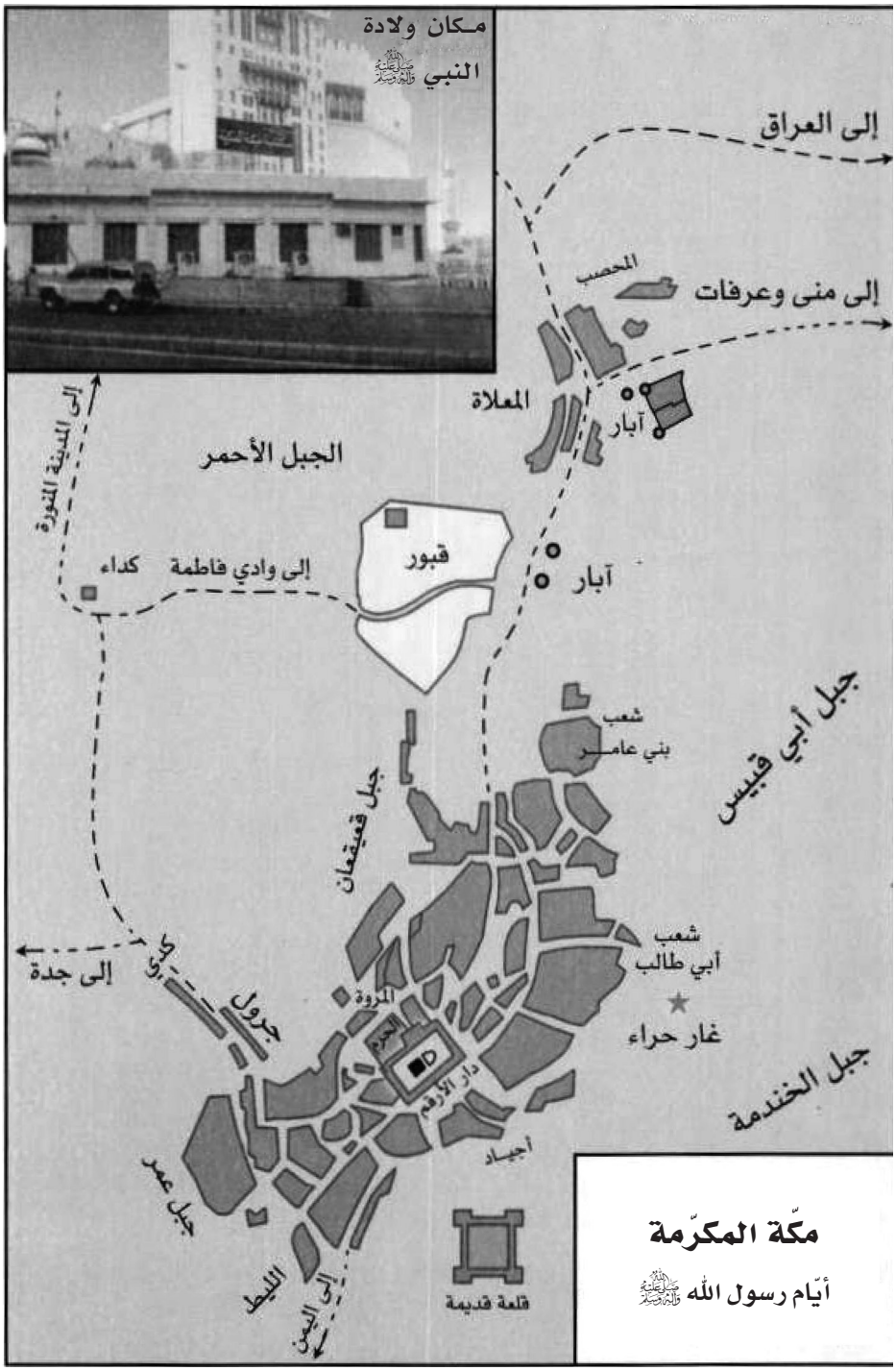

مكّة المكرّمة

أيّام رسول الله ﷺ

خلاصة

- ينتسب النبيّ محمّد ﷺ إلى أشرف أُسرة في مكّة وهي أُسرة بني هاشم. وقد ولد في مكّة المكرّمة، ونشأ ولم يرَ والده، ثمّ بعد فترة من الزمن فَقَدَ والدته، فاحتضنه جدّه عبد المطّلب، حتّى إذا كان عمره ثمانية أعوام فَقَدَ جدّه أيضاً، فاحتضنه عمّه أبو طالب عليه السلام فلم يفارقه في كلّ أحواله، وكان يصحبه معه في أسفاره إلى الشام، وهناك التقى الراهب (بحيرا) فبشّر أبا طالب بمقام ومنزلة ابن أخيه ثمّ دعاه إلى أن يحفظه من اليهود مخافة أن يكيدوا له إن علموا خبره.
- لمّا بلغ الرسول ﷺ العشرين عاماً، ذهب إلى الشام بتجارة للسيّدة خديجة بنت خويلد، وعندما بلغ حدود الخامسة والعشرين تزوّج منها.
- اشترك النبيّ ﷺ قبل بعثته في حلف الفضول، وكانت قريش تدعوه بـ«**الصادق الأمين**».
- النبيّ ﷺ هو الذي وضع الحجر الأسود من الكعبة في مكانه، عندما كادت الحرب أن تقع بين القبائل؛ لأنّ كلّ واحدة منها كانت تروم وضع الحجر في مكانه، حتّى حكّموا النبيّ ﷺ في ذلك.

للمطالعة

صلاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

- كان صلى الله عليه وآله وسلم يُصلّي الصلاة في أوّل وقتها، ويحثّ المسلمين على ذلك، فقد روى ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«الصلاة لوقتها. قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: برّ الوالدين. قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: الجهاد في سبيل الله»**[1].
- وعن عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحدِّثنا ونُحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه[2].
- عن الحسين بن عليّ عليه السلام، في حديث عن خشوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته، يقول عليه السلام: **«كان صلى الله عليه وآله وسلم يبكي حتّى يبتل مصلاه خشية من الله عزّ وجلّ من غير جرم»**[3].
- روي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: **«كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلّى قام على أصابع رجليه حتّى تورّمت فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾»**[4].
- وعن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام قال: **«إنّ جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد، بأبي هو وأمّي، حتّى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أفتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبداً شكوراً»**[5].

(1) محمد بن الحسن، الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص113، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الناشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، لإحياء التراث – قم، ١٤١٤ هـ، ط٢، أبواب المواقيت.

(2) الأصبهاني، أخلاق النبيّ، ص251.

(3) م. ن، ج11، ص45.

(4) الطباطبائي،محمّد حسين، سنن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ص32.

(5) الطوسي، أمالي الطوسي، ص47.

- وحول صلاة رسول الله ﷺ في اللّيل يُحدِّثنا عبد الله بن عباس، يقول: «حتّى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثمّ قرأ العشر آيات الخواتم من سورة آل عمران، ثمّ قام إلى شنٍّ[1] معلَّقة، فتوضّأ منها، فأحسن وضوءه، ثمّ قام يُصلّي، فصلّى ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ أوتر، ثمّ اضطجع حتّى جاءه المؤذّن، فقام فصلّى ركعتين خفيفتين، ثمّ خرج فصلّى الصبح»[2].

وسئلت أمّ سلمة عن صلاة رسول الله ﷺ في الليل فقالت: ما لكم وصلاته؟ كان يُصلّي ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يُصلّي قدر ما ينام، ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يُصبح.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث يشرح فيه كيفيّة إحياء النبيّ ﷺ للّيل قال: «كان يُؤتى بطهور فيُخمّر عند رأسه ويُوضع سواكه تحت فراشه، ثمّ ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثمّ قلّب بصره في السماء، ثمّ تلا الآيات من آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ثمّ يستنّ ويتطهّر ثمّ يقوم إلى المسجد، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، يركع حتّى يُقال متى يرفع رأسه، ويسجد حتّى يُقال متى يرفع رأسه، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويُقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد، فيُصلّي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو من آل عمران ويُقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم الى المسجد فيتوضّأ ويُصلّي الركعتين ثمّ يخرج إلى الصلاة»[3].

(1) شنّ: قربة ماء.

(2) راجع: الشافعي، كتاب الأم، ج1، ص196.

(3) المجلسي، بحار الأنوار، ج84، ص 228.

الدرس الرابع

البعثة النبويّة المباركة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى نزول الوحي والأحداث التي رافقته.

2- يفهم أسلوب النبيّ ﷺ في بدء الدعوة.

3- يتعرّف إلى حقيقة الإعلان عن النبوّة والولاية في وقتٍ واحد.

إرهاصات الوحي والنبوّة

تعرّفنا في الدرس السابق إلى الأجواء التي عاشها رسول الله ﷺ قبل النبوّة؛ حيث كان جميع آبائه موحِّدين، وكان ﷺ على درجة عالية من التربية وحُسن الخُلُق، ولم يتدنّس بعبادة الأصنام، فكان منذ صغره موضع عناية الله تعالى كما يُصوِّر لنا ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره...**»[1]. فكان ﷺ يخلو بضعة أيّام من السنة في جبل [غار] حراء، يقضيها بالعبادة والدعاء، وكان من قبل يتعبّد فيه عبد المطّلب. وحينما بلغ النبيّ الأربعين، نزل عليه جبرائيل، وقرأ عليه أوّل آيات القرآن الكريم[2] وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]. وبعد تلقين ذلك البيان الإلهيّ، عاد النبيّ ﷺ إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به من النبوّة والرسالة.

طمأنينة رسول الله ﷺ

كانت البعثة النبويّة المباركة في السابع والعشرين من شهر رجب الأصَبّ، وتَنقُل

(1) السيّد الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة: 192 (المسمّاة بالقاصعة).
(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج 1، ص251.
(3) سورة العلق، الآيات: 1-5.

لنـا الروايات أنّه ﷺ كان مطمئنّاً إلى المهمّة التي شرّفه الله بها، فلم يكن خائفاً أو مرعوباً مما جرى له، ولمّا دخل على خديجة وأخبرها بما أنزله الله عليه، وبما سمعه مـن جبرئيل، قالـت له: «**أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلّا خيـراً، وأبشر فإنّك رسول الله حقّاً**»[1].

وعـن الإمام الصادق عليه السلام في جواب أحد أصحابه (زرارة) عندما سأله: كيف لـم يخف رسول الله ﷺ فـي ما يأتيه من قِبَل الله أن يكون ممّـا ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: «**إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قِبَل الله عزَّ وجلَّ مثل الذي يراه بعينه**»[2].

الدعوة السريَّة

أقـام رسـول الله ﷺ بمكّة ثـلاث سنين يَكتُم أمـره[3] وهو يدعو إلـى توحيد الله عزَّ وجـلَّ، وذلك لأنّ أجواء مكّة لم تكن في تلك الظروف المناسبة للمجاهرة بالدعوة علناً، فكان في هذه السنوات يدعو سرّاً كلّ من يرى فيه استعداداً لقبول دعوته، ويدعوهم إلى توحيد الله والإقرار بنبوّته. وفي هذه المدّة تناهى خبره إلى أسماع قريش، فكان إذا مرّ بمـلأ من قريش قالـوا: إنّ فتى ابن عبد المطّلب ليُكلَّم من السماء. ولكن بما أنّه لم يكن يُجاهـر بدعوته في الوسط العامّ، لذلك لم يكونوا على علمٍ بفحوى دعوته، وبالنتيجة لم يصدر أيّ ردّ فعل تجاهه.

وفي هذه المدّة آمن بدعوته عدد من الأشخاص، ثمّ إنّ أحد هؤلاء المسلمين الأوائـل وهـو الأرقـم وضع داره ـ التي كانت تقع عند قاعدة جبل الصفّار ـ تحت

(1) نظـراً إلـى الاستعـدادات التي كانت لدى النبيّ ﷺ، ومـا كان يتلقّاه من رسائل ومؤشّرات غيبيّة، فـلا معنى للقول بأنّه قد فوجـئ بنـزول الوحي وأصابه الخوف والاضطراب.. ولم يكن لقاؤه بجبرائيـل في غار حراء هو اللقاء الأوّل بحيث يُصاب مـن جرّائـه بالخوف، وكيف يُمكن القول بأنّه سكن واطمأنّ قلبه استناداً إلى تأكيد نبوته من رجلٍ مسيحيّ أعمى وهو ورقة بن نوفل!!

(2) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج 18، ص262.

(3) الصدوق، محمّد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، ص344، مؤسسة النشر الإسلاميّ، 1363هـ، ج2.

تَصرُّف الرسول ﷺ، فجعل منها ﷺ بمثابة مقرّ لهم كانوا يجتمعون فيها أثناء مدّة الإستخفاء، إلى أن جاء أمر الله بأنّ يَصْدَع بالدعوة[1]. وكانت أمام الرسول ﷺ نقطتان هامّتان في هذه المرحلة وهما:

1- بناء النواة الجهاديّة الأولى للدعوة.

2- حماية هذه النواة والمحافظة عليها.

أوّل من أسلم من النساء والرجال

يتّفق المؤرّخون على أنّ خديجة عليها السلام أوّل امرأة آمنت برسالة النبيّ ﷺ؛ لأنّها كانت أوّل من يطّلع على الأمر بعد عودة النبيّ ﷺ من غار حراء. وكذلك الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان عمره آنذاك عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة.

وكون الإمام عليّ عليه السلام أوّل الناس إسلاماً يُؤيّده الكثير من الأدلّة ومنها:

1- **تصريح النبيّ ﷺ بذلك:** قال ﷺ في محضر جماعة من المسلمين: «**أوّلكم وروداً عليَّ الحوض، أوّلكم إسلاماً، عليّ بن أبي طالب**»[2].

ونقل كبار العلماء والمحدّثين ما يلي: «**استنبأ النبيّ يوم الإثنين وصلّى عليّ يوم الثلاثاء**»[3].

2- **تصريح الإمام عليّ عليه السلام:** قال عليه السلام: «**لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة**»[4].

وتحدّث عليه السلام في موضعٍ آخر عن سبقه إلى الإسلام، قائلاً: «**اللهم إنّي أوّل من**

(1) الحلبي، عليّ بن برهان الدين، السيرة الحلبية، ج1، ص456 -457، دار المعرفة، بيروت.
(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج2، ص81، بيروت، دار الكتاب العربيّ.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص57، دار صادر، بيروت، 1399هـ.
(4) السيّد الرضي، نهج البلاغة، الخطبة 192.

أناب، وسمع وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله بالصلاة»[1]. وقد قال هذا الكلام في معرض احتجاجه على خصومه في مناسبات متعـدّدة من دون أن يعترض أحد على ذلك، أو يجرؤ على الإنكار.

3- أورد العلامة الأميني في كتابه الغدير أقوالاً عن العشرات من كبار الصحابة والتابعين وغيرهم، وعن العشرات من مصادر الفريقين، تؤكّد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو أوّل الأمّة قاطبةً إسلاماً وإيماناً، ومنها ما رواه عن أحمد بن حنبل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**عليّ بن أبي طالب أوّل أصحابي إسلاماً**»[2].

والذي يبدو من النصوص أنّ علياً عليه السلام سبق خديجة إلى الإسلام لكونه ملازماً للنبيّ صلى الله عليه وآله لا يُفارقه حتّى وهو في غار حراء.

والسبق إلى الإسلام أفضلية أكّد عليها القرآن الكريم مُعلناً ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[3].

شبهة أنّ علياً هو أوّل من أسلم من الصبيان

وأمّا القول بأنّ علياً عليه السلام هو أوّل من أسلم من الصبيان لا من الرجال، فهو قول غريب، وذلك لما يلي:

أوّلاً: إنّه قد جاء في بعض النصوص المرويّة عن عليّ عليه السلام وعن غيره التعبير بأنّه: «**أوّل رجل أسلم**»، ما يعني أنه كان حينئذٍ رجلاً بالغاً[4].

ثانياً: إنّه وإن كان قد أسلم وعمره عشر سنوات، إلّا أنّه من الواضح: أنّ الرجولة والبلوغ لا ينحصران بالسنّ، بل بالوعي والتمييز والإدراك، ولا سيما في بدايات الدعوة.

(1) السيّد الرضي، نهج البلاغة، الخطبة 131.
(2) راجع: موسوعة الغدير للعلامة الأميني الجزء الثالث والعاشر.
(3) سورة الواقعة، الآيتان: 10-11.
(4) سيرة ابن إسحاق، ص138.

على أنّ ثمّة أقوالاً كثيرة في سنّ عليّ عليه السلام حين إسلامه بأنّه كان يتراوح بين 12 سنة و 16 سنة، وبعضهم يتجاوز ذلك أيضاً[1]. فكيف يصحّ وصفه بالصبيّ؟

ثالثاً: إنّ سنّ البلوغ قد حُدّدت بعد الهجرة في غزوة الخندق، أمّا قبل ذلك فقد كان المُعتمد هو التمييز والإدراك، وعليه يدور مدار التكليف والدعوة إلى الإسلام والإيمان وعدمه.

رابعاً: لو كان الأمر كما ذكروه، فلا يبقى معنى لقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عنه: «**إنّه أوّل من أسلم**».

دعوة عشيرته

بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة، نزل ملك الوحي يحمل أمر الله تعالى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليُنذر عشيرته الأقربين: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

لمّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً عليه السلام، فأمره أن يصنع طعاماً ويدعو له بني عبد المطّلب ليُبلِّغهم، فصنع عليّ عليه السلام الطعام، ثمّ دعاهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، وفيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، وكان الطعام لا يكفي لهذا العدد في الظروف العادية، ولكن القوم أكلوا حتّى شبعوا جميعاً.

فقام أبو لهب وقال: لقد سحركم صاحبكم. فانفضّ القوم ولم يُكلِّمهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي اليوم التالي أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً أن يفعل كما فعل آنفاً. وبعد أن أكلوا وشربوا، تكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**إنّي والله ما أعلم شابّاً من العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عزّ وجلّ أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على أمري فيكون أخي ووصيّي وخليفتي؟**».

(1) من الذين صرّحوا بذلك: الحافظ عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والمحدّث الكليني، والحسن البصري، والأسكافي وغيرهم.
(2) سورة الشعراء، الآيات: 214 - 216.

فأمسك القوم وأحجموا عنها جميعاً. فقام عليّ عليه السلام وكان أصغرهم سنّاً فقال: «أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك على ما بعثك الله به». فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيده، ثمّ قال: «إنّ هذا أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي فيكم. فاسمعوا له وأطيعوا»[1].

هذه القضية تنتهي بنا إلى مطلب أساس وهو أنّ «النبوّة» و«الإمامة» يُمثّلان مبدأً متماسكاً لا يقبل التجزئة، وذلك لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد طرح قضية الإمامة والقيادة المستقبليّة للمسلمين منذ السنوات الأولى لرسالته، ومنذ اليوم الذي صرّح فيه بنبوّته.

وفي ضوء ترتيب نزول السور نفهم أنّ دعوة عشيرته جاءت قبل الدعوة العلنيّة بمدّة[2].

وفي الختام نُشير إلى أنّ أبا طالب قال ردّاً على أبي لهب عند دعوة العشيرة إلى الإسلام: «يا عورة! والله لننصرنّه ثمّ لنعيننّه، يا ابن أخي إذا أردت أن تدعو إلى ربّك فأعلمنا حتّى نخرج معك بالسلاح»[3]. وبهذا أعلن عميد البيت الهاشميّ قرار هذا البيت بحماية النبيّ صلى الله عليه وآله وعدم تسليمه إلى المكذّبين برسالته.

(1) هذه القضية معروفة بين علماء المسلمين باسم «بدء الدعوة يوم الدار..». وقد نقلها عدد كبير من المفسّرين والمؤرّخين منهم: محمّد بن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص207، وابن الأثير في الكامل في التاريخ، ج2، ص63، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج13، ص122، والشيخ المفيد في الإرشاد، ص29، وغيرهم الكثير.

(2) نزلت سورة الشعراء التي فيها آيات الإنذار بعد سورة الواقعة، ثمّ نزلت بعدها سور: النمل، القصص، الإسراء، هود، يوسف، وبعد ذلك نزلت سورة الحجر التي جاء فيها الأمر بإعلان الدعوة ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾.

(3) تاريخ اليعقوبي، ج2، ص28.

دير الراهب بحيرى من الخارج

دير الراهب بحيرى من الداخل

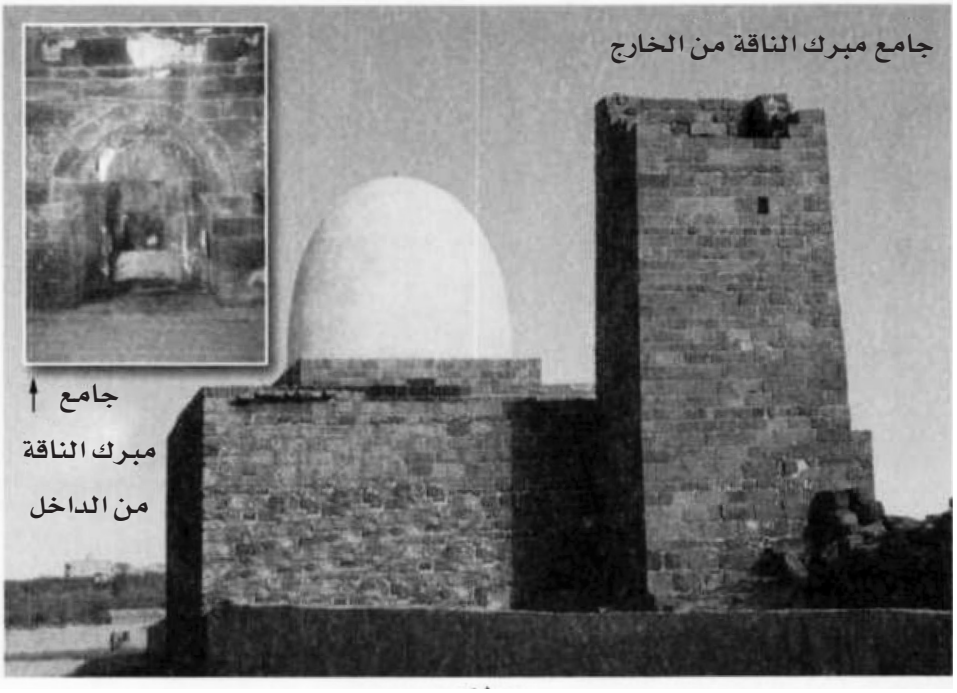

جامع مبرك الناقة من الخارج

جامع مبرك الناقة من الداخل

خلاصة

- كان النبيّ ﷺ مُسدَّداً مُؤيّداً قبل البعثة المباركة من قبل اللّه تعالى، وأُنزِلت عليه النبـوّة وهو ابن أربعين سنة في شهر رجب، ولم يشكّ النبيّ ﷺ في نبوّته لحظة، ولم يتّكئ إلّا على التسديد الإلهيّ والوحي الربانيّ.
- أوّل مـا نـزل من القرآن حسـب النصوص هو مطلـع سورة العلـق. وكان أوّل من آمـن به من الرجـال الإمام عليّ عليه السلام ومـن النساء زوجته خديجـة حتّى تكامل المسلمون أربعين شخصاً خلال ثلاث سنوات من النبوّة.
- أمـر النبيّ ﷺ بإعلان الدعـوة بدءً بعشيرتـه الأقربين، وأسفـر الإجتماع ببني عبـد المطّلب وبني هاشم عن إعلان النبوّة والولاية معاً، وأعلن أبو طالب حمايته للنبيّ ﷺ ودعوته بالرغم من وقوف أبي لهب في الموقع الأوّل من المواجهة.
- دافع أبو طالب عن رسول اللّه ﷺ في دعوته العلنية، وأعلن حمايته.

صيام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

نظـراً للأهميّة البالغة التي يحتلّها الصوم فـي الاسلام، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان شديـد التعلّـق به كأحـد الوسائل الأساس للتقـرُّب إلى الله ونيـل رضوانه، فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم فضـلاً عن أدائه فرض الصيام فـي شهر رمضان، كان يُكثر من الصيام المستحبّ، فقـد صام كلّ يوم فترة مـن الزمن، ثمّ صام يوماً وأفطر يوماً ما شاء الله من عمره، ثـمّ صام شعبـان والأيّام البيض ـ أي الثالث عشر والرابـع عشر والخامس عشر ـ من كلّ شهر، وقد التزم صلى الله عليه وآله وسلم صيام شهر شعبان كاملاً وأوّل خميس وأوسط أربعاء، وآخر خميس من كلّ شهر.

- فعـن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّل ما بُعث يصوم حتّى يُقال: مـا يُفطـر، ويُفطر حتّى يُقال ما يصوم، ثـمّ ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً وهو صوم داوود عليه السلام، ثمّ ترك ذلك وصام الثلاثة أيّام الضحى، ثمّ ترك ذلك وفرّقها: في كلّ عشرة يوماً خميسين بينهما أربعاء، فقُبض وهو يعمل ذلك**»[1].
- وعـن أميـر المؤمنين عليه السلام قال: «**صـام رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدهر كلّـه ما شاء الله، ثـمّ تـرك ذلـك وصام صيام داوود عليه السلام يوماً لله ويومـاً له ما شاء الله، ثـمّ تـرك ذلـك، فصـام الإثنين والخميس مـا شاء الله، ثمّ تـرك ذلك وصام البيض ثلاثة أيّام من كلّ شهر**»[2].
- وعنه أيضاً عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصوم شعبان وشهر رمضان يصلهما.. ويقول لهما: شهر الله وهما كفّارة لما قبلهما وما بعدهما من الذنوب**»[3].

(1) الكليني، الكافي، ج4، ص09.
(2) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج4، ص123.
(3) السبزواري، ذخيرة المعاد، ج ا، ص 125.

- وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان العشر الأواخر (أي من شهر رمضان) اعتكف في المسجد وضُرِبت له قبّة من شعر وشمّر المِئْزَر وطوى فراشه**»[1].
- وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام «**... فلم يزل يعتكف صلى الله عليه وآله وسلم في العشر الأواخر من رمضان حتّى توفّاه الله**»[2].

(1) الكليني، الكافي، ج4، ص 571.

(2) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج49، ص7.

الدرس الخامس

الدعوة العلنيّة ومواجهة قريش

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى الظروف المحيطة بالدعوة العلنية.

2- يُعدِّد الأساليب التي اعتُمِدَت في مواجهة النبيّ ﷺ.

3- يفهم ظروف الحصار المفروض على النبيّ ﷺ وأصحابه في شعب أبي طالب.

بداية الدعوة العلنيّة

بعد مدّة من بدء الرسول ﷺ للدعوة السرّيّة إلى الإسلام، وبعد بناء القاعدة الصّلبة للدعوة المتمثّلة بأولئك الروّاد الأوائل من المسلمين الذين انتموا للإسلام في أيّام غُرْبَته، تلقّى النبيّ ﷺ أمراً من الله تعالى بالمجاهرة بالدعوة وعدم الخوف من المشركين: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[1].

فأظهر أمره وقال: **«إنّي رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تخلق ولا ترزق ولا تُحيي ولا تُميت»**[2].

ومنذ ذلك الوقت دخلت دعوة الرسول ﷺ مرحلة جديدة؛ إذ أخذ يدعو إلى التوحيد في التجمُّعات وفي موسم الحجّ في منى وبين القبائل المجاورة لمكّة.

محاولات قريش

كان ردّ فعل قريش أمام جهره ﷺ بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكّروا لدعوته خصوصاً بعدما ذكر آلهتهم وعابها. وبما أنّ النظام القبليّ الذي كان سائداً في مكّة، كان يعني أنّهم لو تعرّضوا لمحمّد ﷺ لواجهوا خطر الانتقام من بني هاشم، لهذا لجأوا إلى المحاولات التالية، وذلك بأسلوب مُتدرِّج:

(1) سورة الحجرات، الآيتان: 94 و95.

(2) الطبرسي، إعلام الورى، ص39، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط3.

1- **نفوذ عمّه أبي طالب:** وما يكنّه النبيّ ﷺ من احترام له لمنعه ﷺ من مواصلة دعوته، والطلب إليه بالتوقُّف عن سبّ آلهتهم وتقبيح ديانتهم.

2- **الترغيب والترهيب:** التعامل مع أبي طالب بالتهديد تارةً، وبعرض المال والثروة والرئاسة تارةً أخرى. وبعدما يئسوا من الحصول على النتيجة المطلوبة، عرضوا على أبي طالب أن يعطوه عمارة بن الوليد ـ وكان أجمل وأقوى وأشعر فتى في قريش ـ وأن يُسلِّمهم في مقابل ذلك محمّداً ﷺ ليقتلوه، فرفض أبو طالب ووبّخهم بقوله: «**لبئس ما تسومونني عليه، أتُعطوني ابنكم أغذوه لكم وأُعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً**». **وجاؤوه مرّة وهدّدوه بالقتل هو وابن أخيه، فما كان من رسول الله ﷺ إلّا أن قال:** «**والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتّى يُظهِرَه الله أو أهلك فيه، ما تَركتُه**»[1].

3- **مفاوضة النبيّ ﷺ ومساومته مباشرة:** عن طريق إغرائه بالمال والجاه، ولكن النبيّ ﷺ رفض عرضهم؛ لأنّه لا طمع له بالمال والسلطان.

4- **نهي الناس عن الالتقاء بالنبيّ ﷺ:** والاستماع إلى ما يتلوه من قرآن. وقد تحدّث القرآن عن ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[2].

5- **التعرُّض لشخص النبيّ ﷺ بالإيذاء المباشر:** فرجموا بيته بالحجارة، وألقوا التراب على رأسه، ووضعوا الأشواك في طريقه وأمام داره. حتّى قال ﷺ: «**ما أُوذي نبيّ مثل ما أُوذيت**»[3].

6- **اتّباع سياسة الإرهاب والتعذيب:** والتنكيل بالصفوة المؤمنة.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص185.
(2) سورة فصّلت، الآية:62.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج93، ص65.

7- **مواجهة النبيّ** ﷺ: بالتكذيب، والسخرية، والاستخفاف والاستهزاء، ورميه بأنواع التهم من قبيل ساحر ومجنون، وأنّه يُفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وعشيرته. ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾[1]. واتّهموه بأنّه يتعلّم عند رجل نصرانيّ اسمه جبر.

وقد ردّ عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[2].

ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام

وُلدت السيّدة فاطمة عليها السلام على أشْهَر الأقوال في السنة الخامسة للبعثة في مكّة، وكانت أصغر أولاد الرسول ﷺ من زوجته خديجة، وبعد الهجرة تزوّجت من الإمام عليّ عليه السلام في المدينة. وكانت قد شهدت منذ صغر سنّها جهاد أبيها للمشركين وصراعه معهم.

الحصار في شعب أبي طالب

بعد مواقف الصمود تجاه قريش من قبل النبيّ ﷺ ومن معه، قرّرت قريش مقاطعة بني هاشم، وفرض حصار اجتماعيّ واقتصاديّ عليهم، وهو ما عُرِف بحصار الشعب، فقد اجتمع المشركون في دار الندوة وكتبوا وثيقة اتفقوا فيها على البنود التالية:

1- أن لا يُزوِّجوا أحداً من نسائهم لبني هاشم، وأن لا يتزوّجوا منهم.

2- أن لا يبتاعوا منهم شيئاً، ولا يبيعوهم شيئاً مهما كان نوعه.

3- أن لا يجتمعوا معهم على أمرٍ من الأمور.

(1) سورة ص، الآية: 4.

(2) سورة النحل، الآية: 103.

4- أن يكونوا يداً واحدة على محمّد وأتباعه[1].

قدّرت قريش أنّ هذا الحصار سيؤدّي إلى أحد ثلاثة أمور:

إمّا قيام بني هاشم بتسليمهم النبيّ ليقتلوه، وإمّا أن يتراجع النبيّ عن الدعوة، وإما القضاء عليه وعلى جميع من معه جوعاً وعطشاً تحت وطأة الحصار.

استمرّ الحصار ثلاث سنوات، من السنة السادسة حتّى التاسعة للبعثة، وكان المسلمون خلاله يُنفقون من أموال خديجة وأبي طالب، حتّى نفدت واضطروا إلى أن يقتاتوا بورق الشجر، ولم يكونوا يجسرون على الخروج من شعب أبي طالب إلّا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحجّ في ذي الحجّة، فكانوا يشترون حينئذٍ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جدّاً[2].

وكان الإمام عليّ عليه السلام أثناء هذه المحنة يأتيهم بالطعام سرّاً من مكّة من حيث يُمكن.

وكان أبو طالب يحرس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه؛ خوفاً من أن يتسلّل أحد من المشركين إليه ويغتاله على حين غفلة، بل كان إذا حلّ الظلام ينقل النبيّ من المكان الذي عَرف أهل الشعب أنّه بات فيه، إلى مكانٍ آخر، ويجعل ابنه عليّاً عليه السلام في مكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا حصل أمرٌ أُصيب ولده دونه.

وانتهى الحصار بعدما أكلت الأرضة ما في صحيفة المشركين التي تعاقدوا فيها على الحصار، وقيام جماعة منهم ممّن تربطهم ببني هاشم علاقات نسبيّة بنقض الصحيفة وإلغاء مفاعيلها، ومنهم من كان من الموقّعين على الصحيفة، وبذلك عاد

(1) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج1، ص375.

(2) ابن الاثير، الكامل في التاريخ،ج 2، ص87.

بنـو هاشم إلـى مساكنهم[1]. وكان النبيّ ﷺ قد أخبر بأمـر الصحيفة بواسطة أبي طالـب، وهي مـن كراماته ﷺ حيث نزل عليه جبرئيل بأمرٍ من الله تعالى يُخبره بما جرى على الصحيفة.

عام الحزن

في السنة العاشرة للبعثة، وبعد خروج بني هاشم من الشعب بمدّة قصيرة، تُوفّيت خديجـة، وبعدها بمدّة قصيرة تُوفّـي أبو طالب[2]. فعَظُم ذلـك على رسول الله ﷺ واشتـدّ حزنه، وبوفاة هذين الشخصيـن اللّذين كانا عضداً وحـرزاً وناصراً تتابعت عليه المصائب.

فخديجـة بالنسبة للنبـيّ ﷺ كانت ضمن نطاق البيت والأسـرة الزوجةَ الوحيدةَ الحنون والمضحّية والحريصة، وكانت وزيرة صدق على الإسلام، وكان يسكن إليها. وبقـي ﷺ إلى آخر عمره يُكرم مثواها، ولا ينسى سبقها في الإسلام وما تحمّلته من مشقّـة ومكابدة في سبيل الدين، حتّى قال فيها: **«ما أبدلني الله خيراً من خديجة؛ لقـد آمنـت بـي حين كفر بـي الناس، وصدّقتني حيـن كذبني الناس، وواستني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً»**[3].

أمّـا أبـو طالب فهو الذي رعى النبـيّ ﷺ وتولّاه في طفولته وصبـاه، وكان الذّابّ والمدافـع عنه فـي عهد رسالته، فكان يقـف كالسدّ العظيم أمـام أحقاد المشركين وعدوانهـم، ولمّا تُوفّي نالت قريش من رسول الله ﷺ، واجترؤوا عليه حتّى قال ﷺ: **«ما نالت قريش منّي شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب»**[4].

ولا شـكّ بأنّ أبـا طالب مات مُسْلِمـاً، وإن كان قد أخفى إسلامـه كما قال الإمام

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص31 – 32.
(2) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص90.
(3) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج 4، ص287 (في حاشية الإصابة).
(4) ابن شهر أشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص167.

الصادق عليه السلام: «إنّ مثل أبي طالب كمثل أصحاب الكهف؛ أسرُّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين»[1].

ولم تكن المساعي المحمومة التي بذلها بعض الناس من أجل إثبات كفر أبي طالب إلّا بسبب دوافع سياسيّة، وللانتقاص من مكانة الإمام عليّ عليه السلام، وإثبات ولادته من أبٍ كان يعبد الأصنام، حتّى وإن كان هو أوّل الناس إسلاماً. فلا جريرة لأبي طالب سوى أنّه والد عليّ عليه السلام.

الإسراء والمعراج:

اختلف المؤرّخون في تأريخهما ما بين السنة الثانية من البعثة حتّى السنة العاشرة، ولكن الذي نقطع به أنّه حصل قبل وفاة أبي طالب والسيّدة خديجة.

وبحسب النصوص فقد أُسري بالرسول صلى الله عليه وآله من مكّة إلى بيت المقدس، بمعجزة خارقة للعادة، ثمّ عُرج به من هناك إلى السماوات بقدرة الله تعالى. وكان الهدف من هذين السفرين مشاهدة علائم وآيات عظمة الله في الكواكب والسماوات، ولقاء الملائكة وأرواح الأنبياء، ورؤية مشاهد الجنّة والنار، ودرجات أهل الجنّة والنار وما شابه ذلك.

وقد وصف الله تعالى الإسراء بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

وقال تعالى في المعراج بعد بيان المراحل التي مرّ بها الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي: ج1، ص448.
(2) سورة الإسراء، الآية: 1.
(3) سورة النجم، الآية: 18.

ويـرى علمـاء الإماميّـة أنّ معراج النبيّ ﷺ حصـل بالروح والجسـد معاً، وليس بالروح فقط. ودليلهم هو تصريح الآيات بلفظ العبد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[1]، والعبـد يُطلق على الروح والجسد، وقوله تعالـى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾[2] فالرؤية البصريّة تُطلـق علـى رؤية الجسد دون رؤية الروح فقط، فضلاً عن أنّه لو كان بالروح فقط لما خرج أبو طالب والهاشميّون في طلبه ﷺ[3].

(1) سورة النجم، الآية: 10.

(2) سورة النجم، الآية: 17.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص290.

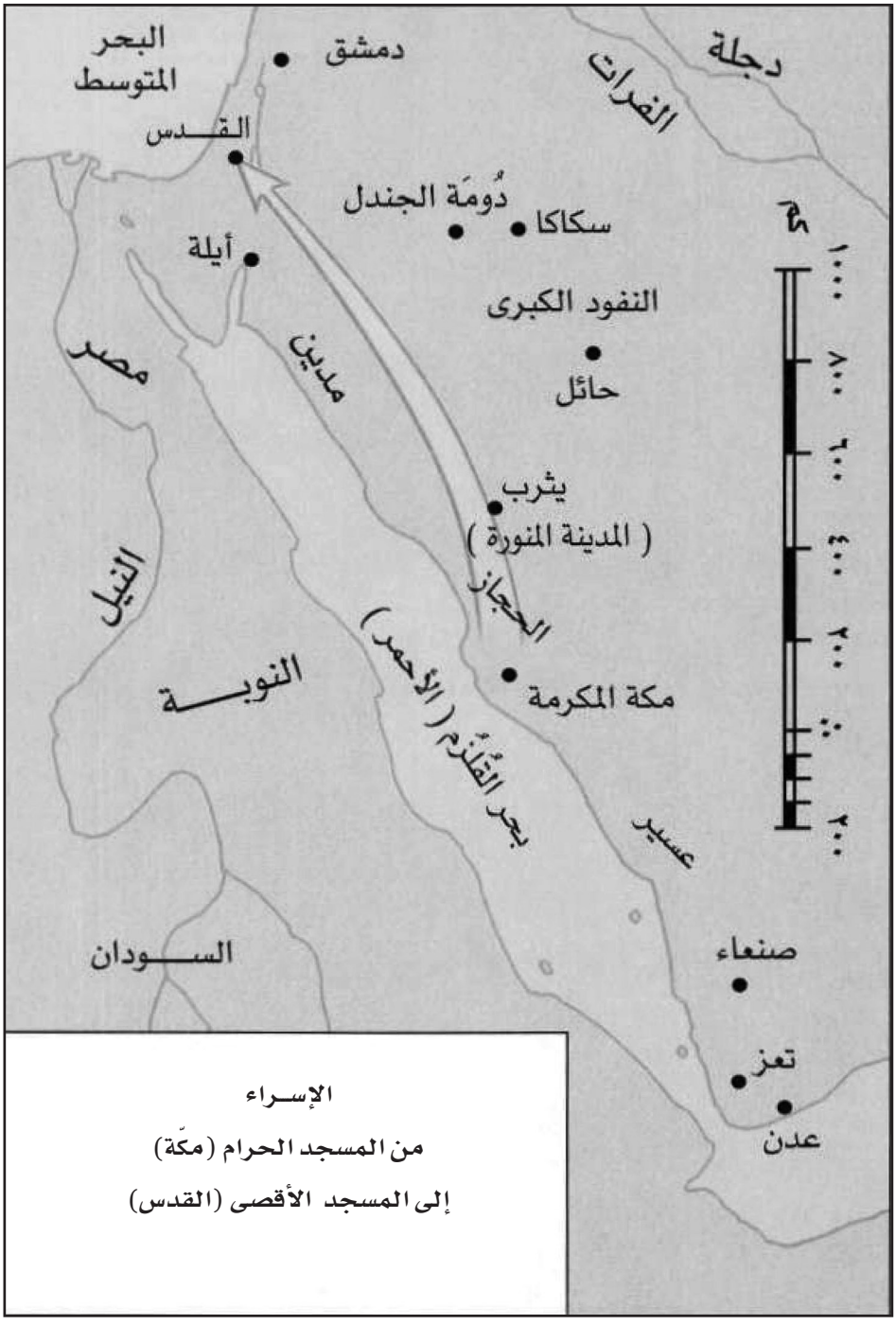
البحر
المتوسط
دمشق
دجلة
الفرات
القـــدس
دُومَة الجندل
سكاكا
أيلة
النفود الكبرى
حائل
مصر
مدين
يثرب
(المدينة المنورة)
الحجاز
النيل
النوبـــة
مكة المكرمة
بحر القُلزُم (الأحمر)
عسير
السـودان
صنعاء
تعز
عدن
م
١٠٠٠
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
٠٠
٢٠٠
الإسـراء
من المسجد الحرام (مكّة)
إلى المسجد الأقصى (القدس)

خلاصة

- عندما بدأت الدعوة العامّة والعلنيّة لرسول الله ﷺ أخذ الملأ من قريش يُخطِّطون لتحجيم الرسول ﷺ وحركة الرسالة، وانتقلت المواجهة من الحرب الباردة إلى حربٍ ساخنة تمثّلت بالاضطهاد، حتّى القتل والتهجير والحصار الشامل من أجل الإبادة التامّة.
- فَشِل مخطّط الحصار للنبيّ ﷺ، ومن معه في شعب أبي طالب، وانتهى الأمر بانتصار النبيّ ﷺ وخروجه مع أصحابه من الحصار بعد سنوات مريرة.
- انتهى الحصار وانتهت بذلك أيّام حياة سنَدَين عظيمين للنبيّ ﷺ في دعوته وهما: زوجته الوفيّة خديجة، وعمّه أبو طالب، وسمّى رسول الله ﷺ ذلك العام بعام الحزن.
- في مكّة المكرّمة، كرّم الله تعالى نبيّه بمعجزةٍ لم تكن لأحد من الأنبياء، وهي معجزة الإسراء والمعراج، وكان ذلك بروح النبيّ ﷺ وجسده معاً.

للمطالعة

قراءة النبيّ ﷺ للقرآن

القرآن كتاب الله الذي نزل على عبده ورسوله محمّد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وقد تَكفَّل القرآن من خلال آياته المباركة بهداية الناس إلى الحقّ والعدل والخير في جميع شؤونهم، **«ومن ابتغى الهُدى في غيره، أضلّه الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء»**[1].

وقد شدّد الإسلام على الاهتمام به والاعتصام بحبله، من خلال قراءته وتدبّره ووعي تعاليمه وتجسيد مفاهيمه في الحياة الفردية والاجتماعيّة وغيرها.

قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

ونظراً لمكانة القرآن في الإسلام فقد كان رسول الله ﷺ شديد العناية به: تلاوةً وتعليماً وحضّاً على تعاهده ورعايته. وكان هدفه من تلاوة القرآن أن يُحرز المزيد من القُربى إلى الله سبحانه، وليكون قدوة للمؤمنين في تعاهد أمره، وتدبّر آياته، والحرص عليه.

وهذه بعض الروايات التي تُشير إلى مدى اهتمامه ﷺ بالقرآن:

- كان ﷺ لا يرقد حتّى يقرأ المسبِّحات ويقول: **«في هذه السور آية هي أفضل من ألف آية»**، قالوا: وما المسبِّحات؟ قال ﷺ: **«سورة الحديد والحشر والصفّ والجمعة والتغابن»**.
- وعن أُمّ هانىء: كنت أسمع قراءة النبيّ ﷺ بالليل وأنا على عريشي.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص245.
(2) سورة آل عمران، الآية: 138.

- ولشـدّة تفاعله مع القرآن كان يبكي عندما يقـرأ بعض آياته، فقد روى ابن مسعود قال: قال النبيّ ﷺ لي: «إقرأ عليَّ القرآن»، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنـزل؟! فقـال ﷺ: «إنّي أحـبّ أنْ أسمعه مـن غيري»، فقرأت عليـه سورة النساء حتّى جئت إلى هـذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1] قال ﷺ: «حسبك الآن»، فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان[2].
- وإلى كثرة ما كان يقرأ من القرآن يُشير أنس بن مالك فيقول: إنّ رسول الله ﷺ وجد شيئاً من وجع، فقيل له: يا رسول الله اشتدّ عليك الوجع، وإنّا نرى أثر الوجع عليك.

فقـال ﷺ: «أما مع ما ترون، فقد قـرأت البارحة السبع الطوال، أي من البقرة إلى الأنفال».

وهكذا كان ﷺ دؤوباً على تلاوة كتاب الله، شغوفاً به، فلم يترك القراءة حتّى في حالات مرضه.

(1) سورة النساء، الآية: 41.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص 216.

الدرس السادس

أحداث ما بين البعثة والهجرة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يُعـدِّد الخطوات التـي اتّبعها النبيّ ﷺ قبـل الانتقال إلى المدينة.

2- يتعـرّف إلى ظـروف وأهداف الهجرة إلـى الحبشة وسفر الرسول ﷺ إلى الطائف.

3- يفهم أهميّة بيعة العقبة في نشر الدعوة.

خصائص الدعوة الإسلاميّة في مكّة

لـم يتناول التشريـع الإسلاميّ في العهـد المكّي قضايا الدولـة والحُكم والنظام السياسـيّ بصورة مباشرة، لأنّ المسلمين في مكّـة لم يكونوا مجتمعاً سياسيّاً، وإنّما كانـوا جماعة عقيديّة تحكمها علاقات تتراوح بين الاستغراب، والجفاء، والعداء من مجتمعها.

فكانـت مفـردات الدعوة وأطروحتهـا مقصورة في مكّـة على القضايـا الأساس الكبـرى: قضية الألوهيّـة والتوحيد، وقضية النبوّة العامّة ونبـوّة محمّد ﷺ، وقضيّة الحيـاة بعـد الموت (البعث والمعـاد)، وقضيّة عـدل الله تعالى، ورحمتـه، وقدرته، وعلمـه، وسائر صفاته تعالى. كما كانـت تشتمل على المسألـة الاجتماعيّة، الفقراء والأغنياء، والظلم... ولكن مع ذلك حمل العهد المكّي ـ في القرآن والسيرة ـ إشارات إلى طبيعة الدعوة الإسلاميّة، من الناحية السياسيّة، وبعض الإشارات إلى المستقبل، ونـزل من القرآن بمكّة إثنتان وثمانون سـورة، على ما رواه محمّد بن حفص بن أسد الكوفـيّ عن ابن عبّاس. وكان أوّل ما نـزل على النبيّ ﷺ على بعض الروايات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثمّ ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ثمّ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ثمّ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ثمّ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثمّ فاتحة الكتاب... ثمّ ﴿الْعَنكَبُوتِ﴾.

ورُوي عن ابن عبّاس: «**أنّ القرآن كان ينزل مُفرّقاً، لا ينزل سورة سورة، فما نزل**

أوّلها بمكّة أثبتناها بمكّة وإن كان تمامها بالمدينة، وكذلك ما نزل بالمدينة، وإنّه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذا نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فيعلمون أنّ الأولى قد انقضت وابتُدئ بسورة أخرى»[1].

الهجرة إلى الحبشة

لمّا رأت قريش دخول خَلق عظيم في الإسلام بدأت بالمواجهة الفعليّة. وعمل صناديد قريش على إنزال أشدّ أنواع العذاب بالمسلمين، فكان ممّن عُذِّبَ في الله عمّار بن ياسر، وياسر أبوه، وسُمَيَّة أمّه، حتّى قَتل أبو جهل سُمَيّة، فكانت أوّل شهيدة في الإسلام.. عندها أمر النبيّ ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة وقال لهم: **«إنّ بها مَلكاً لا يُظلم عنده أحد»**[2]. وكان عددهم في أرض الحبشة ثلاثة وثمانين ما بين رجل وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدّمتهم جعفر بن أبي طالب. فأرسلت قريش وفداً لاسترادهم، فواجههم النجاشيّ بالرفض بعدما استمع من المسلمين إلى حقيقة الإسلام وعظمته.

وأهمّ الدوافع للهجرة كان الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين، والمحاولات القاسية التي بذلها المشركون لفتنتهم آملين رجوعهم عن الدين الحقّ وارتدادهم، فضلاً عن التبشير بالإسلام ومبادئه وأهدافه وأحكامه، والترويج له والتعريف به خارج الجزيرة العربيّة.

سفره إلى الطائف للدعوة

عزم النبيّ ﷺ على التوجُّه إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام، لعلّه يلتمس منهم النصر والمِنعة، وبعد أن اشتدّ أذى قريش له إثر وفاة خديجة وأبي طالب، وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثة، وأقام في الطائف عشرة أيّام يتجوّل فيها

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،ج 2، ص33 - 34.
(2) الطبري، تاريخ الطبري،ج 2، ص222.

ويدعو أهلها إلى الإسلام، ومعه زيد بن حارثة[1].

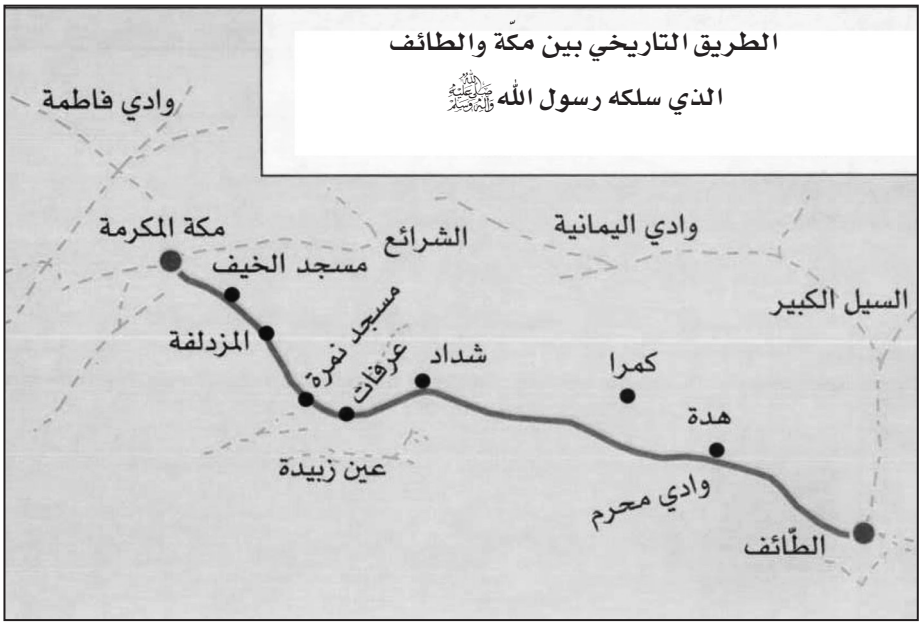

ولكنّهم واجهوه ولم يسمعوا منه، بل جلسوا في الطريق يرمونه بالحجارة حتّى جُرِح في رأسه، فانصرف راجعاً إلى مكّة.

وكان الهدف من هذا السفر الإعداد للمستقبل باعتبار أنّ الطائف هي البلد الثالث الذي له موقعه ونفوذه الخاصّ في المنطقة، نظراً لوجود قبيلة كبيرة فيها هي ثقيف.

وربما يكون لهجرته إلى الطائف أهداف أخرى، كإيجاد قاعدة لدعوته يرتكز عليها تكون قريبة من مكّة، أو إلقاء حجّة عليهم، وكل ذلك يرجع إلى أنّ الرسول ﷺ كان يخطو في دعوته بخطوات هادفة ومدروسة.

(1) الطبري، تاريخ الطبري، ج2، ص230.

انتشار الإسلام في يثرب

منـذ السنوات الأولى للدعوة العلنيّة للرسولﷺ في مكّة، تناهت أخبار بعثته إلى أسمـاع أهالي يثرب بواسطة المسافرين، وكان بعضٌ منهم قد قابله في مكّة وأسلم، ولكنّهم ماتوا أو قُتلوا بعد مدّة[1].

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة التقى رسول اللّهﷺ بستّة من أشراف الخزرج في موسم الحجّ في منى، ودعاهم إلى الإسلام، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون واللّه إنّه النبيّ الذي كان يوعدكم به اليهود، فلا يسبقنّكم إليه أحد. فأجابوه وقالوا له: إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم العداوة والشرّ مثلما بينهم، فعسى أن يجمع اللّه بينهم بك، فنُقدِم عليهم وندعوهم إلى أمرك. فلمّا قدِموا المدينة أخبروا قومهم بالخبر، فما دار حولٌ إلّا وفيها حديث رسول اللّهﷺ[2].

ونجـح تخطيط النبيّﷺ الذي استهدف من هذا الاجتماع حثّ هؤلاء الأشخاص علـى القيام بنشاط في بلادهم؛ لتهيئة الجوّ وخلق منـاخ مؤيِّد ومتعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة في المدينة.

بيعة العقبة الأولى:

وعندمـا حلّ موسـم الحجّ في العـام الثاني التقـىﷺ مع اثني عشـر رجلاً من اليثربيّيـن، واجتمـع بهـم سرّاً فـي وادٍ ضيّـق بالعقبة بيـن مكّة ومنى، وهـي العقبة الأولـى[3]، وقـد أعلنوا فيها إيمانهـم واستعدادهم للعمل على نشـر الإسلام، وبايعوا رسول اللّهﷺ على ذلك.

فلمّـا أرادوا الانصراف إلى بلدهم، بعث رسـول اللّهﷺ معهم مصعب بن عمير

(1) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج 2، ص67.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص25.
(3) العقبة بمعنى الطريق الضيّق، ويُراد بها العقبة التي تقع عند نهاية منى إلى يمين مكّة.

من أجل أن يُعلِّمهم الإسلام، ويُفقّههم في الدين، ويجعل منهم قوّة أكثر فاعليّة ودقّة في نشر الدين الجديد في صفوف أهل المدينة.

استطاع مصعب بن عمير، بفعل وعيه وخبرته بشتّى أساليب العمل والتبليغ، أن يقوم بواجبه كما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. وكان عدد المسلمين في المدينة يزداد يوماً بعد يوم، وأصبح جوّ المدينة العامّ مؤيِّداً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومهيَّئاً لقدومه.

بيعة العقبة الثانية:

وفي العام التالي، أي في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وبعد مرور عام كامل على بيعة العقبة الأولى، عاد مصعب بن عمير إلى مكّة ومعه جمعٌ كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مُستخفين مع حُجّاج قومهم المشركين.. ويبدو أنّ مصعباً قَبْل حضوره إلى مكّة، كان قد رتّب اجتماعاً بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين مسلمي يثرب بعد انتهاء موسم الحجّ.

فالتقى بعضهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وواعدهم أن يجتمع بهم في العقبة في اليوم الثاني من أيّام التشريق ليلاً، وأمرهم بالحفاظ على سرِّيَّة الاجتماع. وفي الليلة المعيّنة تمّ الاجتماع بحضور الإمام عليّ عليه السلام والحمزة في الدار الذي كان ينزل فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو دار عبد المطّلب، فبايعوه على حمايته، وعلى أن يمنعوه وأهله ممّا يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وعلى أن ينصروه ويقفوا إلى جانبه في الشدّة والرخاء، كما بايعوه على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن يَدعُوا إلى الله ولا يخافوا في الله لومة لائم، وقد سُمِّيت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية[1].

لقد نجح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في نهاية المطاف، بفعل إصراره على مواصلة الدعوة وعدم يأسه أو استسلامه أمام الفشل الظاهريّ في الطائف وفي مكّة، وبفعل الثقة بوعد

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص25 - 26.

الله سبحانه بالنصر، في إيجاد القاعدة المناسبة التي يرتكز عليها الإسلام فكانت يثرب موضع اختياره الجديد.

وكانت بيعة العقبة هي الخطوة الرئيسة التي مهّد فيها النبيّ ﷺ للهجرة إلى المدينة المنوّرة. وبالهجرة إلى المدينة تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي مرحلة بناء الدولة، والدفاع عن الإسلام.

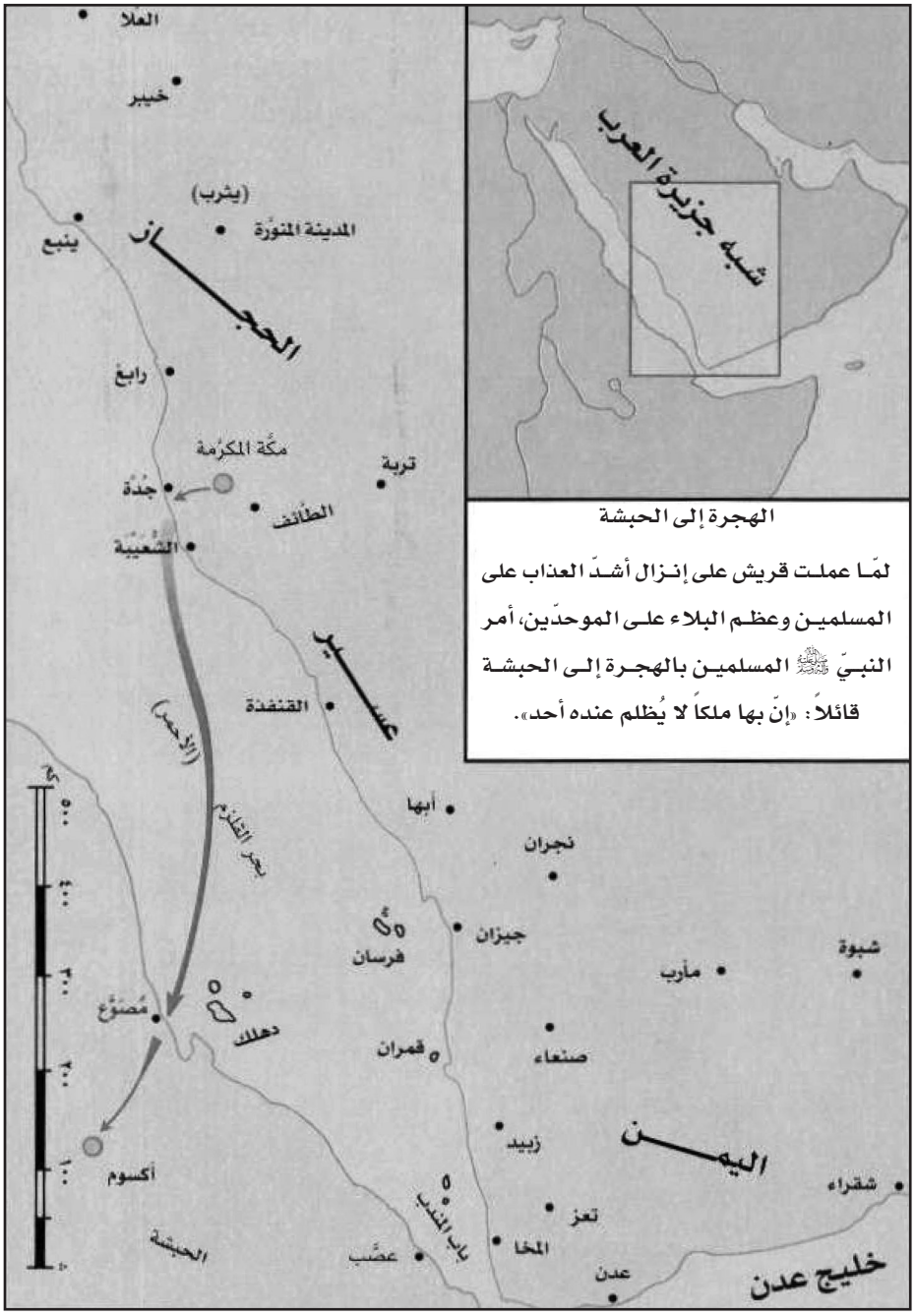

الهجرة إلى الحبشة

لمّا عملت قريش على إنزال أشدّ العذاب على المسلمين وعظم البلاء على الموحدّين، أمر النبيّ ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة قائلاً: «إنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد».

خلاصة

- لم تشتمل الدعوة الإسلاميّة في العهد المكّي على مفردات سياسيّة صريحة، وإنّما كانت مفرداتها مقصورة على قضايا العقيدة الأساس، بالإضافة إلى جملة من المسائل الاجتماعيّة.
- بعد تعرُّض النبيّ ﷺ وأصحابه للتعذيب الشديد والقتل والتشريد، أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، نظراً لوجود ملك عادل فيها، فاحتضن «النجاشيّ» المسلمين المهاجرين ولم يُسلِّمهم إلى الوفد الذي أرسلته قريش لاستردادهم.
- أسفر جهاد النبيّ ﷺ في الدعوة إلى الله عن إسلام بعض أهل يثرب، واستمرّت دعوته إليهم حتّى أسلم جمعٌ من أهلها، وقدم عليه- في العام الثالث عشر من البعثة- سبعون رجلاً وامرأتان وبايعوه على الدفاع والنصرة، وسألوه أن يخرج إليهم فيمنعوه كما يمنعون أبناءهم ونساءهم، ويحاربوا معه وينصروه، وكان ذلك من نتائج بيعة العقبة الأولى والثانية.

أذكار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من ذكر الله، بل ما فارق ذكر الله شفتيه المباركتين قطّ، ولم يُرَ إلّا ذاكراً مُسبِّحاً أو شاكراً مُستغفِراً.

رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يُكثر من قول: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، اللّهمّ اغفر لي إنّك أنت التواب الرحيم».

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»[1].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقوم من مجلس وإن خفَّ حتّى يستغفر الله خمساً وعشرين»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرة»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوب إلى الله في كلّ يوم سبعين مرّة من غير ذنب، كان يقول: أتوب إلى الله»[4].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّ للقلوب صداء كصداء النحاس فاجلوها بالاستغفار»[5].

وكما كان دائم الاستغفار كان دائم الشكر لله سبحانه على كلّ حال.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ورد عليه أمر يُسرُّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمّ به قال: الحمد لله على كلّ حال»[6].

(1) النسائي، السنن الكبري، ج6، ص114.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص504.
(3) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص180.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج5، ص320.
(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص284.
(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص97.

وعنه عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمد الله في كلّ يوم ثلاثمائة وستّين مرّة ... يقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً على كلّ حال»[1].

وعن عليّ عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه أمر يُسرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وإذا أتاه أمر يكرهه قال: الحمد لله على كلّ حال»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نوم قطّ إلّا خرَّ لله عزّ وجلّ ساجداً»[3].

وعن عليّ عليه السلام: «كان النبيّ في كل يوم إذا أصبح وطلعت الشمس يقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً طيّباً على كلّ حال، يقول ثلاثمائة وستين مرّة شكراً»[4].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص503.
(2) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج 1 ص 94.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج16، ص253.
(4) الشيخ الطوسي، الأمالي، ج 2 ص 12.

الدرس السابع

الهجرة النبويّة إلى المدينة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى قصّة مبيت عليّ عليه السلام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

2- يحلّل دوافع هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، ويفهم أسس المجتمع المدني.

3- يعدّد أهمّ بنود الوثيقة بين أطياف المجتمع المدني.

مبيت الإمام عليّ عليه السلام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

علمت قريش بأمر البيعة رغم كلّ التكتُّم الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فعزمت على إلقاء القبض على المُبايعين، وشدّدت من إيذائها للمسلمين وتعذيبهم، وعلى إثر ذلك قال لهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»[1] وكان هذا إيذاناً بالهجرة إلى المدينة.

فأخذ المسلمون يتوجّهون إلى يثرب رغم كلّ المشاكل والعراقيل التي وضعتها قريش أمامهم. ورأت قريش في هذه الهجرة خطراً عليها لما يُشكّله المهاجرون مع أهل المدينة من قوّة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالحها، خاصّة أن تجارتها إلى الشام تمرّ عبر المدينة، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم.

وعلى الرغم من كلّ المضايقات تمكَّن معظم المسلمين من الهجرة، ولم يبقَ في مكّة بعد بيعة العقبة بفترة وجيزة سوى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وعدد قليل من المسلمين.

بقي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة ينتظر الإذن الإلهيّ بالهجرة. وشعرت قريش بحجم الخطر فيما لو التحق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه، خاصّة بعدما قُدِّرت أنّ المدنيّين سيحمونه وينصرونه بعدما بايعوه، فاتخذت قراراً حاسماً بالتخلُّص من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

(1) ابن هاشم، السيرة النبويّة، ج2، ص123.

قبل فوات الأوان، واستطاعت أن تنتزع قراراً بمشاركة كلٍّ قبائل قريش في عمليّة الاغتيال، من أجل أن يتفرّق دمه في القبائل كلّها؛ فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثأروا لدمه، ولكنّ الله تعالى أخبر رسوله بهذه المؤامرة[1]، وأمره بالخروج ليلاً من مكّة وأن يجعل عليّاً عليه السلام مكانه ليبيت على فراشه من أجل التمويه والإيهام، وليردّ كيدهم عليهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى غار ثور وبات عليّ عليه السلام على فراشه تلك الليلة[2]. وعندما اقتحم المشركون دار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وجدوا أنفسهم أمام عليّ عليه السلام، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج قبل ذلك من بينهم وتوجّه نحو غار ثور وبقي فيه ثلاثة أيّام، إلى أن تمكّن من الوصول إلى قرية (قباء) في طريق المدينة المنوّرة، برغم ملاحقة قريش له.

ونظراً للتضحية الكبرى التي قدّمها الإمام عليّ عليه السلام، أنزل الله تعالى بحقّه قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3].

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة

غادر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الغار قاصداً يثرب في شهر ربيع الأوّل بعدما كان قد أمضى ثلاث عشرة سنة في مكّة، بعدما ترك عليّاً عليه السلام ليؤدّي الودائع التي كانت عنده للناس، ولتهيئة مستلزمات هجرة ابنته فاطمة عليها السلام وعدد آخر من النساء والرجال من بني هاشم[4].

(1) ذكر الله تعالى لنبيّه الكريم هذه المؤامرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، الآية: 30).

(2) رغم أنّ قريشاً جنّدت كلّ قواها للعثور على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولكنّها بقدرة الله لم تعثر عليه لكونه منصوراً ومؤيّداً من الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية: 40).

(3) سورة البقرة، الآية: 207.

(4) الطوسي، الأمالي، ص468، دار الثقافة، 1414هـ، ط1.

فَوَصَل ﷺ أوّلاً إلى قُباء وهي منطقة على مقربة من يثرب، وتوقّف فيها بضعة أيّام في انتظار قدوم عليّ عليه السلام، وبنى في هذه المدّة مسجداً هناك[1].

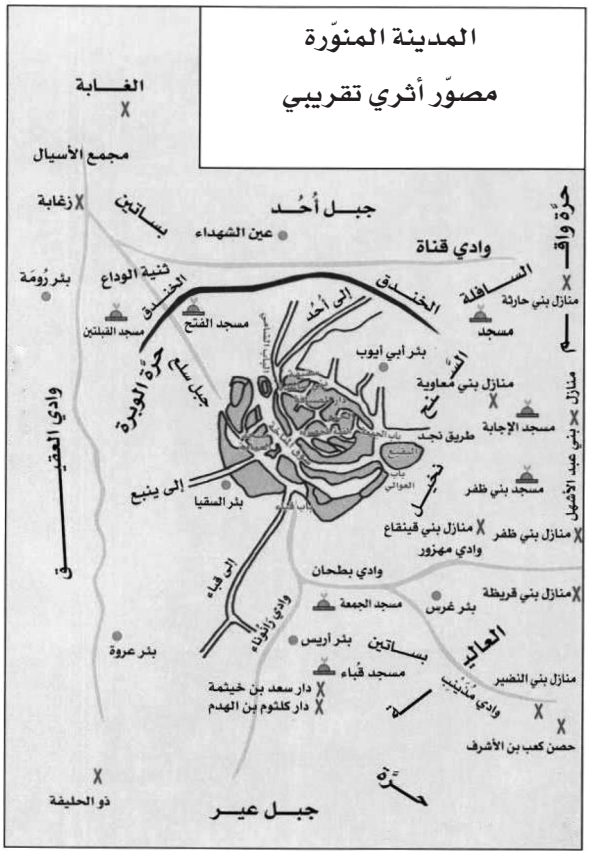

ثمّ توجّه بصحبة عليّ عليه السلام وجماعة من بني النجار (أخوال عبد المطّلب) تجاه يثرب. ولدى وصوله إليها استقبله الناس بفرح وسرور بالغ، وكان ﷺ لا يمرّ بمكان إلّا وقام وجوه القبائل وأشرافها بأخذ زمام ناقته، طالبين منه النزول عليهم وهو يقول: «**خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة**»[2] حتّى وصل إلى أرضٍ قرب دار أبي أيوب الأنصاريّ، وبنى في تلك الأرض المسجد النبويّ. ولأنّ الهجرة تُعتبر نقطة تحوُّل ومُنعطَفاً مُهمَّاً في تاريخ الإسلام أصبحت مبدأً لتاريخ الإسلام والمسلمين بتدبير النبيّ ﷺ؛ الذي أمر المسلمين أن يُؤرّخوا ابتداءً من شهر ربيع الأوّل، وهناك العديد من رسائل النبيّ ووثائقه وكتبه تُؤيّد ذلك.

(1) الطبري، تاريخ الطبري، ج 2، ص249.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص340.

دوافع الهجرة

لـم تكـن الهجرة إلى المدينــة ردّ فعل لاضطهاد قريش، بل كانــت فعلاً خطّط له النبيّ ﷺ لتكون المدينة قاعدة ارتكاز للدعوة، وأهمّ الدوافع التي أدّت للهجرة هي:

أولاً: أنّ مكة لم تَعُد مكاناً صالحاً للدعوة، ولم يبقَ أيّ أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد في المستقبل القريب على الأقل، فكان لا بُدَّ من الانتقال إلى مكانٍ آخر ينطلق الإسلام فيه بحريّة بعيداً عن ضغوط قريش.

ثانياً: كان اختيــاره للمدينــة بسبب بعدهــا الجغرافيّ عن مكّــة، ممّا يجعلها بمأمــن من هجمــات قريش المفاجئــة والمباغتة من جهة، ومــن جهة أخرى هي قريبة من طريق تجــارة مكّة ـ الشام؛ بحيث يتمكّن النبيّ ﷺ من فرض سيطرته وممارسة نوع من الضغط السياسيّ والاقتصاديّ، وحتّى العسكريّ، على قريش في الوقت المناسب.

ثالثاً: من الناحية الاجتماعيّة كانت يثرب مركــزاً للتنازع القبليّ، بين الأوس والخــزرج واليهــود، وهي تتطلّــع إلى رجل تلتــفّ حوله لينزع عنها إلــى الأبد هذه العصبيّــات المستعصيــة. وأمّــا اقتصاديّاً فهي غنيّــة بإمكانيّاتهــا الزراعيّة بما يُمكّنهــا من المقاومة في حال التعرُّض للضغــوط الاقتصاديّة من قِبَل المشركين وغيرهم.

بناء الدولة والمجتمع في المدينة

باشــر النبيّ ﷺ فور وصوله إلى المدينة بأعمال تأسيسيّة، ترتبط ببناء المجتمع السياسيّ الإسلاميّ، وبمستقبل الدعوة الإسلاميّة، وأبرزها:

أولاً: بناء المسجد:

وهو أوّل مركز عُنيَ النبيّ ﷺ بإنشائه، وقد كان مركزاً للعبادة، والتعليم، والحُكم

والإدارة، ومقـرّاً لحكومة النبيّ ﷺ، ولم يُمارس النبيّ ﷺ مُهمّات حكوميّة وإداريّة في المدينة في مكانٍ آخر غير المسجد.

وبعد إتمام بناء المسجد بُنيت إلى جانبه حُجرتان، لتكونا مساكن لرسول الله وزوجاته.

ثانياً: المؤاخاة:

العمل المهمّ الآخر الذي أقدم عليه الرسول ﷺ في السنة الأولى للهجرة، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، من أجل توكيد وحدة المسلمين والتغلُّب على التناقضات الداخليّة القائمة بين الأوس والخزرج، والتناقضات المتوقَّعة بين المهاجرين والأنصار، وفي سبيل تحطيم الاعتبار الطبقيّ، والاقتصاديّ، وعلاج مشكلة التفاوت في المستوى المعيشيّ، والتعبير العمليّ عن مبدأ المواساة والمساواة الإسلاميّ، فتآخى هو ﷺ مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وآخى بين المسلمين وكان يؤاخي بين كلٍّ ونظيره[1].

وهذه هي المؤاخاة الثانية، وكانت المؤاخاة الأولى في مكّة بين أصحابه من قريش ومواليهم (العبيد المُعتَقين).

وهذه المؤاخاة في المدينة أدّت إلى مزيدٍ من التلاحم بين المهاجرين والأنصار، وإلى تحقيق الانتصارات الكبرى في بدر والخندق وغيرهما برغم قلّة العدد وبساطة العتاد.

ثالثاً: وثيقة الصحيفة:

بعد أن استقرّ الرسول ﷺ في المدينة، رأى من اللازم تنظيم الوضع الاجتماعيّ لأهلها؛ وذلك لأنّ تحقيق أهدافه على المدى البعيد يتطلّب استقرار الأوضاع فيها. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ التركيبة السكانيّة فيها كانت غير متكافئة ولا متجانسة.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص130.

فقد كان يقطن هذه المدينة يومذاك جماعات تنتمي كلّ جماعة منها إلى إحدى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج.

وكان يعيش في داخل المدينة وحولها أقوام من اليهود، وفي الوضع الجديد أُضيف إليهم أيضاً المهاجرون القادمون من مكّة. وكان هذا الوضع يُنذر بالمخاطر.

وفي ضوء هذا الواقع ابتكر الرسول فكرة، فكتب ميثاقاً وُصف بأنّه **«أوّل دستور»** أو **«أعظم عقد وسند تاريخي في الإسلام»**. وقد بيّن هذا العقد حقوق مختلف المكوِّنات السابقة في يثرب، وضَمِن لهم حياةً سليمة مع إقرار النظام والعدالة فيها، وهو بمثابة دستور عمل لتنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع المتهوِّدين، وقد تضمّنت الوثيقة قواعد في الحقوق والعلاقات أهمّها:

1- إنّ المسلمين أمّة واحدة من دون الناس، رغم اختلاف قبائلهم وانتماءاتهم.

2- إنّ رسول الله ﷺ هو قائد الأمّة، وهو المرجع في حلّ المشكلات التي قد تحدُث بين المسلمين وبين غيرهم.

3- قرّرت الوثيقة أنّ مركز السلطة في المدينة هو النبيّ ﷺ، فهو صاحب القرار في السماح أو المنع من تنقّل الأشخاص إلى خارج المدينة، فلا يُسمح لأحد من اليهود - أي المتهوِّدين - بالخروج إلّا بإذن رسول الله ﷺ.

4- إنّ مسؤوليّة دفع الظلم تقع على عاتق الجميع، ولا تختصّ بمن وقع عليه الظلم.

5- مَنَحت الوثيقة المتهوِّدين من الأنصار حقوقهم العامّة، كحقّ الأمن والحريّة والمواطنة، بشرط أن يلتزموا بقوانين الدولة، وأن لا يُفسدوا ولا يتآمروا على المسلمين والإسلام[1].

(1) للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذه الوثيقة وبنودها، راجع كتب السيرة، منها: السيرة النبويّة لابن هشام: ج2، ص147 - 150.

وكان لهذه الوثيقة أثرٌ في حفظ الاستقرار في المدينة، إذ لم تقع أيّة نزاعات بين أهل المدينة حتّى السنة الثانية للهجرة.

رابعاً: موادعة اليهود:

اليهود المقصودون في وثيقة الصحيفة الآنفة الذكر هم: المتهوِّدون من قبائل الأنصار، وليس اليهود الذين هم من أصل إسرائيليّ (بنو قينقاع، والنضير، وقريظة)، فقد شعر هؤلاء بأنّهم قد عُزلوا عن أنصارهم من المتهوِّدين بعد توقيع الصحيفة، فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطلبوا الهدنة، فكتب لهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أن لا يُعينوا عليه أحداً، ولا يتعرّضوا لأحد من أصحابه بلسان ولا يد، ولا بسلاح، لا في السرّ ولا في العلانية، فإن فعلوا فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حلّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم[1].

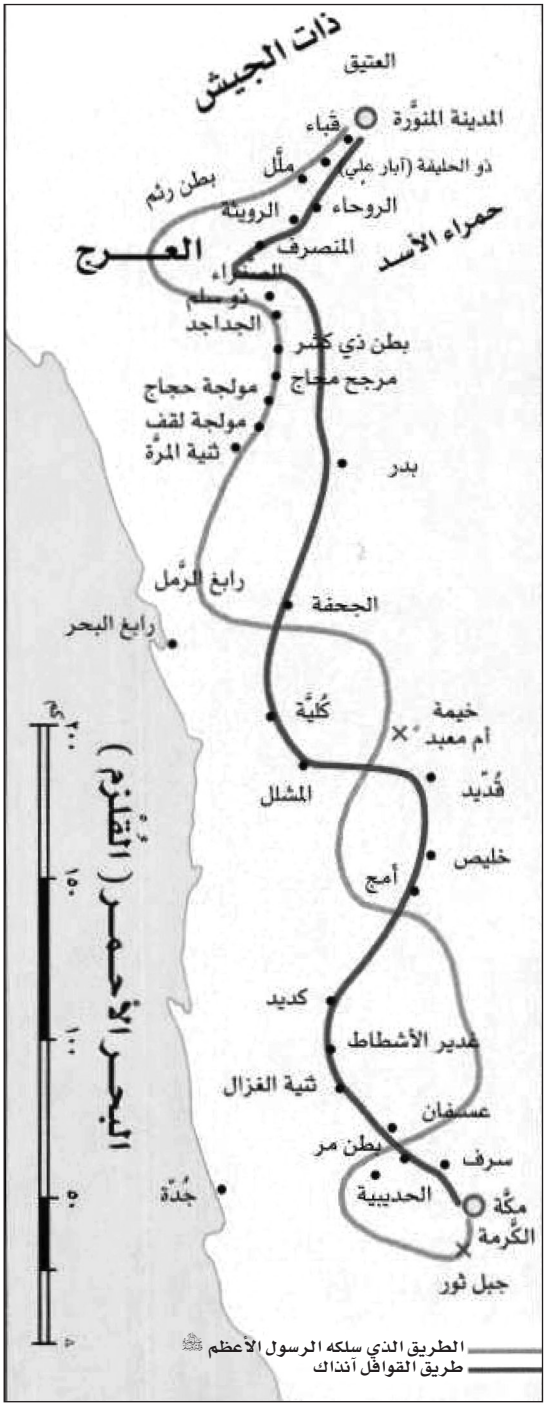

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص110.

خامساً: إعداد القوّة العسكريـّة

فقد عمل رسول اللّه ﷺ على تقوية دعائم الدولة من خلال تدريب القوى البشريّة ودعمها بالسلاح والخيل، ونظَّم المدينة على أساس عسكريّ، وكوّن من شعبها مجتمع حرب، فقسّم المسلمين في المدينة إلى عرافات، وجعل على كلّ عشرة عريفاً، وجعل من جميع الذكـور البالغين جنوداً، وكوّن منهم الجيوش، والسرايا العسكريّة. ويُمكن رسم الملامح العامّة للإدارة العسكريّة في عهد النبيّ ﷺ بما يلي:

1 – القرار العسكري: الذي كان بيد النبيّ ﷺ وحده، ولم يكن لأحدٍ من المسلمين سلطة اتخاذ قرار عسكريّ بشكلٍ منفرد بعيداً عن النبيّ ﷺ.

2 - تشكيـل الجيش: حيث كان ﷺ يُشكِّل الجيش والوحدات العسكريّة من الذكور البالغين، ولم يكن يقبل في عداد الجيش غيرهم.

3 - التدريب: ثبت عن رسول اللّه ﷺ أنّه أمر بالتدريب على الفروسيّة والرمي، وجعل التدريب العسكريّ من مقدّمات الثقافة العامّة للمجتمع الإسلاميّ.

خلاصة

- من أهمّ الأحداث في تأريخ الإسلام السياسيّ هو حدث الهجرة المباركة، حيث تمّ بعدها إقامة الدولة الإسلاميّة بزعامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- بدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ببناء مسجد قباء، ثمّ المسجد المعروف اليوم بمسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لجمع المسلمين فيه وليكون مركزاً للدولة وانطلاق الدعوة إلى أطراف العالم، ثمّ آخى بين المهاجرين والأنصار، واحتفظ بالإمام عليّ عليه السلام أخاً له من دون سائر المسلمين.
- نظراً للتنوُّع السكّانيّ في المدينة، والصراعات القبلية، كتب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوّل دستور وأعظم عقد وسند تاريخيّ في الإسلام من أجل تنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع المتهوِّدين، ولضمان استقرار الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في المدينة.
- طلب اليهود من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم توقيع هدنة معهم، فكتب لهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك على أن لا يُعينوا عليه أحداً ولا يتعرّضوا بسوءٍ لأصحابه، وإلّا فهو في حلٍّ من أمره.
- عمل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على تقوية دعائم الدولة؛ من خلال الإعداد العسكريّ وتدريب المسلمين على السلاح والرمي.

خُلُقُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان أمير المؤمنين عليه السلام اذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**كان أجود الناس كفّاً، وأرحب الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده**»[1].

وعن يونس عن الحسن قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «**كان خُلُقُه القرآن**»[2].

وعن أنس قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس خُلُقاً**»[3].

وقال الديلميّ في الإرشاد: «كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويُسلِّم على من استقبله من غنيّ وفقير وكبير وصغير، ولا يُحقِّر ما دُعي إليه ولو إلى حشف التَّمر، وكان خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسّاماً من غير ضحك، ومحزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلَّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكلّ مسلم. ولم يتجشّأ من شبع قطّ، ولم يمدّ يده إلى طمع قطّ»[4].

وقال العلماء في أخلاقه الفرديّة: «كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أسخى الناس، لا يثبت عنده دينار ولا درهم، فإن فَضُل ولم يجد من يُعطيه ويجنّه الليل لم يأوِ إلى منزله حتّى يتبرّأ منه إلى من يحتاج إليه.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج16، ص190.
(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج6 ص91.
(3) البخاري، الصحيح، ج7 ص119.
(4) الديلمي، إرشاد القلوب، ج1، ص226.

لا يأخذ ممّا آتاه الله إلا قوت طعامه فقط، مِنْ يسير ما يجد من التمر والشعير.

وكان يجلس على الأرض وينام عليها ويأكل عليها. وكان يخصف النَّعل، ويُرقِّع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشَّاة، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيا (تعب).

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً. وكان أصبر الناس على أوزار الناس»[1].

وعن أبي أمامة قال: وكان رسول الله ﷺ: إذا جلس جلس القرفصاء.

وكان أكثر طعامه التَّمر والماء، ورُوي أنّه كان لا يأكل وحده ما يُمكنه.

وكان إذا أكل سمّى، ويأكل بثلاث أصابع وممّا يليه، ولا يتناول من بين يدي غيره، ويُؤتى بالطعام فيشرع قبل القوم ثمّ يشرعون، وذلك لكي لا يستحي أحد من تناول الطعام إذا هو كفَّ عنه.

وما ذمَّ رسول الله ﷺ طعاماً قطّ، وكان إذا أعجبه أكله وإذا كرهه تركه[2]. وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه التي أكل بها، وكان ﷺ يغسل يديه من الطعام حتّى ينقيهما فلا يوجد لما أكل ريح.

وكان ﷺ لا يلبس ثوبين، ويلبس الغليظ من القطن والكتان، إذا لبس جديداً أعطى خُلف ثيابه مسكيناً.

وكان يُجالس الفقراء ويُؤاكل المساكين ويُناولهم بيده، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس.

وكان يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار[3].

(1) الطباطبائي، سنن النبي ﷺ، ص113، نقلاً عن الأحياء للغزالي.

(2) م.ن، ص222.

(3) م.ن، ص 134.

الدرس الثامن

جهاد النبي ﷺ (1)

معركة بدر - معركة أحد

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يفهم أسبـاب ونتائج معركة بـدر وعوامل انتصار المسلمين فيها.

2- يستنتج أسباب الهزيمة في معركة أحد.

3- يـدرك أهميّة التزام أوامر القيادة وتوجيهاتها في الحروب.

التحرّكات العسكريّة الأولى للمسلمين

انحصر دور النبيّ ﷺ في مكّة كقائدٍ إلهيّ بالدعوة والهداية وإرشاد الناس. وبعد استقراره في المدينة تولّى الزعامة السياسيّة للمسلمين أيضاً، واتّجه لإقامة مجتمع جديد مبنيّ على أساس تعاليم الإسلام، لذلك قام بعدّة خطوات في هذا الاتجاه، كما مرّ سابقاً.

وكانت تنزل على النبيّ ﷺ آيات القرآن في المدينة تتضمّن أحكاماً وتعاليم سياسيّة واجتماعيّة. ولمّا صدر من الله تعالى الإذن بالجهاد والدفاع[1]، عزم على تشكيل قوّة دفاعيّة لتعزيز الإجراءات الاحترازيّة، ولحماية المسلمين من أيّ هجوم عسكريّ، وبادر إلى وضع النواة الأوّليّة للجيش الإسلاميّ، وقاد مجموعة من المعارك والغزوات والمناورات العسكريّة في السنة الثانية للهجرة.

وللمؤرّخين اصطلاحان في المعارك التي خاضها المسلمون في حياة النبيّ ﷺ هما:

الغزوة: ويقصدون بها المعركة التي يحضرها النبيّ ﷺ نفسه، ويتولّى هو قيادتها.

(1) قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (سورة الحج، الآيتان: 39 و40).

قبور شهداء بدر

السِّريَّة: وهي المجموعة الجهاديّة التي لا يكون فيها النبيّ ﷺ ويتولّى أحد أصحابه قيادتها.

وأحصى المؤرّخون عدد الغزوات والسرايا في حياة النبيّ ﷺ، فبلغت أكثر من ثمانين غزوة وسَرِيَّة، وكلّها كانت في فترة ما بعد الهجرة.

فقد قام ﷺ بالعديد من التحرُّكات العسكريّة[1]، مثل سَرِيَّة حمزة بن عبد المطّلب التي تألّفت من ثلاثين مقاتلاً، والتي لاحقت قافلة لقريش أثناء عودتها إلى مكّة، لكن مجدي بن عمرو الجهنيّ الذي كان موادعاً للطرفين، حال بينهما، فانصرفا من غير قتال، ثمّ سَرِيَّة عبيدة بن الحارث التي تألّفت من ستين مُقاتلاً حيث تبعت جماعة أبي سفيان، وسَرِيَّة سعد بن أبي وقاص التي تألّفت من عشرين مقاتلاً، لاحقت قافلة لقريش، وكذلك تتبّع الرسول ﷺ برفقة جماعة من المسلمين قافلة لقريش حتّى بلغ أرض الأبواء، ولكن لم يقع اشتباك بين الطرفين. وعقد النبيّ ﷺ في سفره هذا معاهدة مع قبيلة بني ضمرة بأنْ تقف على الحياد. وخرج أيضاً ﷺ على رأس مائة وخمسين من أصحابه لاعتراض قافلة تجاريّة لقريش يقودها أبو سفيان مُتوجِّهاً من مكّة إلى الشام (غزوة ذات العشيرة) ولكنّه لم يلحق بالقافلة، وأبرم أثناء ذلك معاهدة مع قبيلة بني مدلج[2].

معركة بدر

(1) هذه التحرّكات لا تُعتبر حرباً كاملة، ولم يحصل في أيٍّ منها معركة أو اشتباك بين الطرفين.

(2) الطبري، تاريخ الطبري، ج2، ص259 – 261.

كانت «معركة بدر» أوّل معركة مُسلَّحة كبرى خاضها النبيّ ﷺ والمسلمون في مواجهة المشركين من قريش، وذلك يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية من الهجرة، قُرْبَ بدر على بُعد حوالي مائة وستين كيلو متراً من المدينة فيما بينها وبين مكّة المكرّمة.

خرج رسول الله ﷺ ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه مستهدفين السيطرة على القافلة التجاريّة التي كان يقودها أبو سفيان، المُتوجِّهة من الشام إلى مكّة، لا طمعاً في المال والغنيمة وإنّما بُغية التعويض على المسلمين ممّا أخذه منهم المشركون، وفرض حصار اقتصاديّ على قريش، علَّ ذلك يدفعها إلى الامتناع عن محاربة الدعوة، والتآمر على الإسلام والمسلمين.

لقد كان قرار التصدّي للقافلة ينطوي على احتمال تطوُّر الموقف، وحصول مواجهة عسكريّة، ونشوب معركة حاسمة ومصيريّة، وهو ما حصل فعلاً.

فقد علم أبو سفيان بتحرُّك النبيّ ﷺ فغيّر طريقه، وأرسل إلى مكّة يطلب النجدة من قريش، فأقبلت قريش بأحقادها وكبريائها بألف مقاتل لحماية القافلة، وحين علمت قريش بنجاة القافلة حاول بعض قادتها أن يكتفي بذلك ويدعو إلى الانسحاب والعودة إلى مكّة، إلّا أنّ أبا جهل وغيره أصرُّوا على العدوان، فقرّروا الهجوم على المسلمين، والتقى الجمعان في بدر، وبدأت المعركة بالمبارزة ثمّ التحم الجيشان وهما غير مُتكافئين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد، ولكنّ الله أنزل الكثير من ألطافه ورحمته، فتدخّلت يد الغيب، وجاء الإمداد الملائكيّ للنبيّ ﷺ، فحقّق الله سبحانه النصر للإسلام والمسلمين، واندحرت قوّة قريش، وتشتّت جيشها بين قتيل وجريح وأسير؛ حيث أسفرت المعركة عن قتل سبعين من المشركين وأسر سبعين، ولم يسقط من المسلمين سوى تسعة شهداء وقيل: أحد عشر، وقيل: أربعة عشر شهيداً، ولم يُؤسر منهم أحد.

وقـد برز للإمام عليّ بـن أبي طالب عليه السلام في هذه المعركـة دور كبير، وظهرت شجاعته المُتميِّزة بين صفوف المسلمين، حيث رُوي أنّه قُتل بيده ثُلث قتلى المشركين، وقيل: قتل نصفهم بيده وشارك الآخرين في قتل النصف الآخر.

لقـد حقّق المسلمـون في بدر مكاسب ماديّـة وأمنيّة وعقيديّـة وإعلاميّة، ساهمت في خدمة الدعوة وتثبيت أركانها، وتحقيق نقلة نوعيّة في مجمل الأحداث في الجزيرة العربيّة.

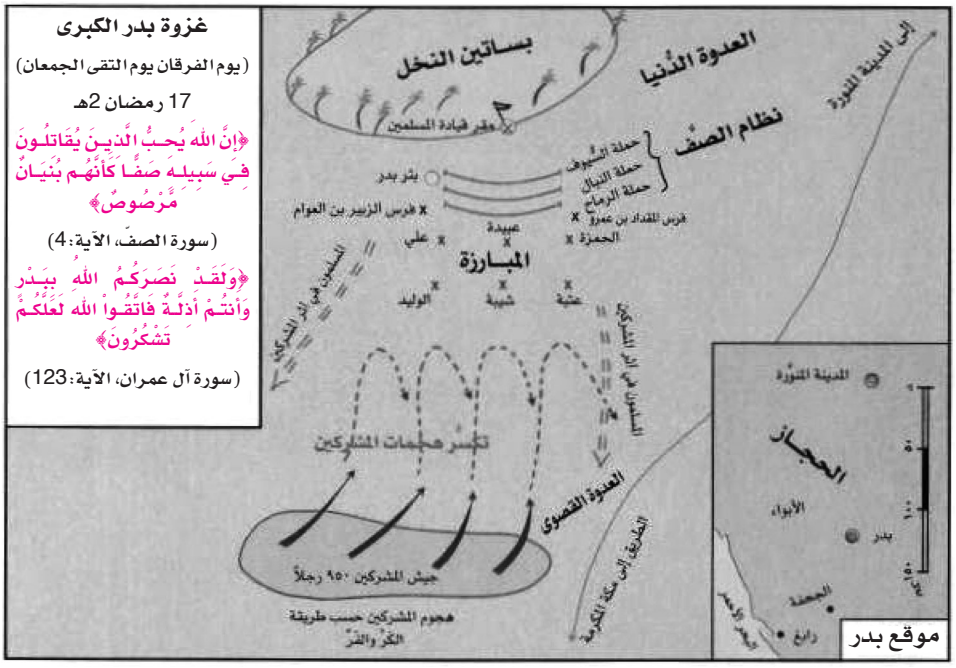

ولعلّ أبرز نتائج هذه المعركة أنّها:

أوّلاً: عزّزت ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبّتت إيمان بعض المتردِّدين في إسلامهم.

ثانيـاً: جعلت مـن المسلمين قوّة مرهوبة الجانب عند القبائـل المشركة واليهود في المنطقة.

ثالثـاً: شجّعـت الكثيرين علـى الدخول في الإسـلام بعد أن كانـت قريش تُشكِّل الحاجز النفسيّ والماديّ لهم.

رابعاً: أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب.

خامساً: فتحت الأبواب أمام رسول الله ﷺ للانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.

سادساً: زادت من قوّة التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار، وعزّزت وحدة الفريقين في مواجهة التحدّي.

وأثبتت تجربة بدر:

أوّلاً: أنّ القلّة المؤمنة المجاهدة الصابرة التي تملك إرادة قويّة وعزيمة راسخة، وإخلاصاً، ووعياً، وتخطيطاً، تستطيع أن تُحقّق الانتصارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتّى ولو كان العدوّ يملك الكثرة والقوّة الماديّة الكبيرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وثانياً: إنّ النصر بحاجة إلى عنصر روحيّ معنويّ هو الإيمان بالله، والإخلاص له، والاعتماد عليه، والثقة به، وغير ذلك ممّا يُوفّر للإنسان قوّة روحيّة ومعنويّة، تُبعده عن الشعور بالقلق والخوف والضياع أمام مواقف التحدّي.

وقد كان هذا العنصر حاضراً بقوّة في بدر ومجاهديها، وقد ساهم بصورة أساس في تحقيق الانتصار في هذه المعركة، وفي كلّ المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهة أعدائهم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 123.

(2) سورة الأنفال، الآيتان: 65 و66.

عوامل انتصار المسلمين

كانت هزيمة قريش وانتصار المسلمين في بدر مفاجأة غير مُتوقَّعة، وصلت أصداؤها إلى الحبشة. ويُمكن تلخيص أسباب وعوامل هذا الانتصار الباهر للمسلمين بما يلي:

1- **القيادة الصالحة للنبيّ ﷺ وشجاعته وإقدامه**، وفي ذلك يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**كُنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ؛ فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه**»[1].

2- **شجاعة عليّ عليه السلام وتضحيته الفذّة**، فهو وحده قتل نصف عدد من قُتلوا من المشركين[2].

3- **العقيدة الراسخة والمعنويّات العالية**، حيث كان المسلمون على درجة عالية من الإيمان وقوّة الروح المعنويّة، وقاتلوا بكلّ بسالة وأظهروا من الشجاعة ما أثار دهشة المشركين.

4- **الإمداد الغيبيّ**، الذي حصل على عدّة وجوه، مثل نزول الملائكة على المسلمين بالنصر وحضورهم في ساحة المعركة، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين[3].

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج13، ص279.
(2) م.ن، المقدّمة ص24.
(3) راجع: سورة الأنفال، الآيتان: 9 و17.

معركة أُحد

استمرّت أحداث بدر ومعركتها التاريخيّة تتفاعل حقداً وكيداً في نفوس المشركين في مكّة. ولم يكن لدى أبي سفيان، قائد الشرك والعدوان آنذاك، غير التفكير بالحرب ومعاودة الهجوم على المسلمين بدافع الثأر، وتحقيق نصر عسكريّ يُغيِّر الآثار النفسيّة والإعلاميّة التي أنتجتها معركة بدر.

فدقّ المشركون طبول الحرب، وخطّطوا للعدوان والهجوم على المدينة، واتفقوا على أن تُرصد أرباح القافلة التجاريّة التي أفلتت من قبضة المسلمين وقادت إلى معركة بدر، لإسناد هذه الحملة العسكريّة الآثمة.

زحف المشركون باتجاه المدينة، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل معهم العتاد والسلاح الكثير، وأخرجوا النساء معهم ليُشجعنّ الجنود على القتال، فعرف النبيّ ﷺ بمسيرهم من خلال عيونه في مكّة.

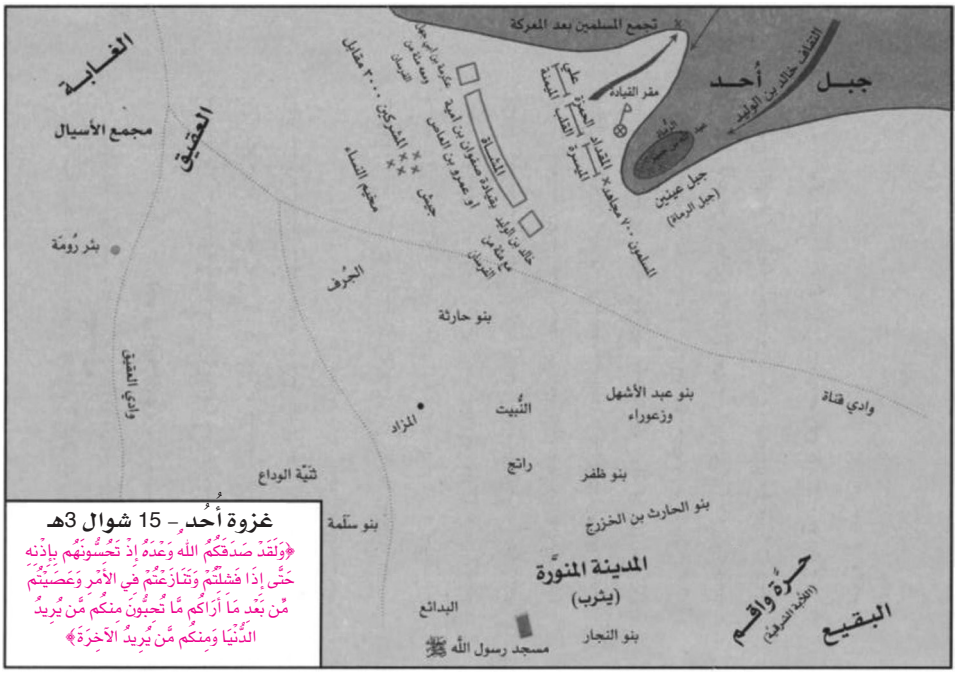

غزوة أُحد – 15 شوال 3هـ

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾

قبر حمزة سيّد الشهداء ويظهر جبل أُحُد خلفه

ويُقـال: إنّ العبّاس بن عبد المطّلب أرسل إليه من مكّة بذلك، فأعلن النبيّ ﷺ التعبئة العامّة في صفوف المسلمين استعداداً للدفاع، وبثّ العيون ورجال الاستطلاع في المنطقة لجمع المعلومات. وبعد أن استشار أصحابه في سُبُل التصدّي، قرّر مواجهة العدوّ خارج المدينة، فخرج ﷺ في حوالي ألف مقاتل، غير أنّ المنافقين بقيادة عبد الله بن أُبيّ بن سلول، انسحبوا قبل الوصول إلى ساحة المعركة، وكانوا ثلاثمائة، بحجّة أنّ النبيّ ﷺ خالف رأيهم الداعي إلى قتال المشركين من داخل المدينة، فواصل رسول الله ﷺ مسيرة الجهاد بسبعمائة مقاتل، والتقى الفريقان عند جبل أُحد على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة، في شهر شوّال من السنة الثالثة من الهجرة.

رسم رسول الله ﷺ خارطة المعركة، وحدّد مواقع جيشه، فوضع الرماة عند تلّة مشرفة في الجبل، وكان عددهم خمسين رجلاً، ليسُدَّ بهم ثغرة يُمكن للعدوّ أن يتسلّل منها، وليُوفّر حماية خلفيّة للجيش الإسلاميّ، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم مهما

حدث، فقال لهم فيما يُروى عنه ﷺ: «**احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تُشركونا**»[1].

جبل الرماة وخلفه جبل أُحُد

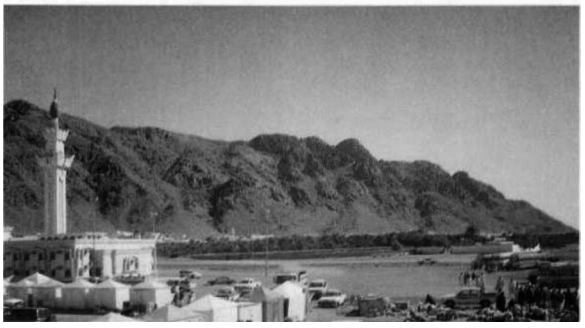

جبل أُحُد

وبدأت المعركة، وكان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، فاستولت قوّاتهم على ساحة المعركة، وانهزم العدوّ، وبدؤوا بجمع الغنائم، فاستهوت الغنائم نفوس بعض الرماة، فتركوا مواقعهم، واندفعوا نحو الغنائم، مخالفين بذلك أوامر قائدهم الذي رفض مع قلّة منهم أن يترك موقعه امتثالاً لتكليف رسول الله ﷺ، ممّا أحدث ثغرة في صفوف المجاهدين، فاستغلّها خالد بن الوليد أحد قادة المشركين آنذاك، فهاجم المجاهدين من خلفهم، فتسبّب هذا الهجوم ببعثرة الجيش الإسلاميّ وانهزامه أمام المشركين الذين استعادوا أنفاسهم بعدما تمكّن خالد بن الوليد من قتل القلّة التي بقيت على الجبل والالتفاف على المسلمين المُنشغلين بجمع الغنائم، وصرخ صارخ أنّ محمّداً قد قُتل فَتَشَتَّت المسلمون تحت وقع المُباغتة، وتفرّقوا عن رسول الله ﷺ ولم يثبُت معه غير الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي راح يُقاتل إلى جانب رسول

(1) ابن كثير، السيرة النبويّة، ج3، ص47.

اللّه ﷺ قتـالاً شديداً ويصـدّ كتائب المشركين ويُفرّقهم ويقتـل فيهم، عندها نادى جبرائيل عليه السلام من السماء: «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ»[1].

ولمّـا رأى المسلمون الفارُّون صبرَ وثباتَ رسول اللّه ﷺ والإمام عليّ عليه السلام وقوّة جهادهمـا فـي سبيل اللّه وعرفـوا أنّ النبيّ ﷺ لـم يَمُت، وهو يدعوهـم إليه، بدؤوا يعودون تدريجيّاً إلى ميدان المعركة حتّى اجتمعوا حوله ﷺ، فطلب منهم أن يرجعوا إلى مراكزهم الأولى في القتال، تماماً كما هي الخطّة الأولى، فقاتلوا من جديد قتالاً شديـداً، وتمكّنوا من صدّ هجمات المشركين المتواصلة، وأدرك المشركون استحالة إبادة المسلمين وتفتيتهم وتحقيق انتصار عليهم، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح، فآثروا الانسحاب عائدين إلى مكّة دون تحقيق أهدافهم.

آثار المعركة

ومع ذلك فإنّ ما أصاب المسلمين في هذه المعركة كان خسارة فادحة، فقد سقط فيهـا حوالي سبعين شهيداً وفي مقدّمهم حمزة بن عبـد المطّلب ومصعب بن عمير (رضـوان اللّه عليهما)، وعدد كبير مـن الجرحى حتّى أنّ النبـيّ ﷺ أُصيب ببعض الجـراح في وجهه، حسب رواية عن الإمام الصـادق عليه السلام، وبلغت جراحات الإمام علـيّ عليه السلام نيّفـاً وستّين جراحة، وقيـل أكثر من ذلك، بين طعنـة، ورمية، وضربة؛ أثناء دفاعه عن رسول اللّه ﷺ وصدّه كتائب الأعداء.

لقـد أُصيـب المسلمون بفعـل النكسة في «أُحـد» بصدمة عنيفـة وحزن عميق، وشعـروا بالضعف والاحباط حتّى كاد اليأس يتسرّب إلـى بعضٍ منهم، والشكّ إلى بعضٍ آخر.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص110.

أسباب الهزيمة ودروسها

إنّ الأسباب التي أدّت إلى فشل المسلمين في أحد فصول معركة «أُحد» وما يُمكن أن نستفيده من هذه التجربة كثيرة، منها:

1- أهميّة الانضباط والتقيُّد بأوامر القائد وتوجيهاته مهما كانت الظروف.

2- أنّ النصر لا يرتبط بكثرة العدد، ولذلك لا ينبغي الاغترار بالكثرة، بل يجب الاعتماد على النفس والتوكّل على الله والطاعة للقيادة وتحمُّل المسؤوليّة والقيام بالتكاليف.

3- إنّ عناية الله بالمؤمنين وتسديده لهم لا يعني إلغاء جميع الأسباب الطبيعيّة كليّةً، وهذه العناية والإمداد الإلهيّ مشروطان بالسعي نحو الهدف الأسمى.

4- إنّ الارتباط بالله تعالى والإعراض عن الدنيا ومتاعها عاملان أساسان في تأييد الله تعالى للمسلمين.

وأدّت نتائج معركة أُحد إلى شماتة اليهود وكشف أحقادهم، ومحاولة إثارة الفتن من المنافقين، وإلى زعزعة الثقة بالقدرة العسكريّة للمسلمين، وشجّعت أعداء الإسلام في أطراف المدينة على الوقوف ضدّ المسلمين والتآمر عليهم.

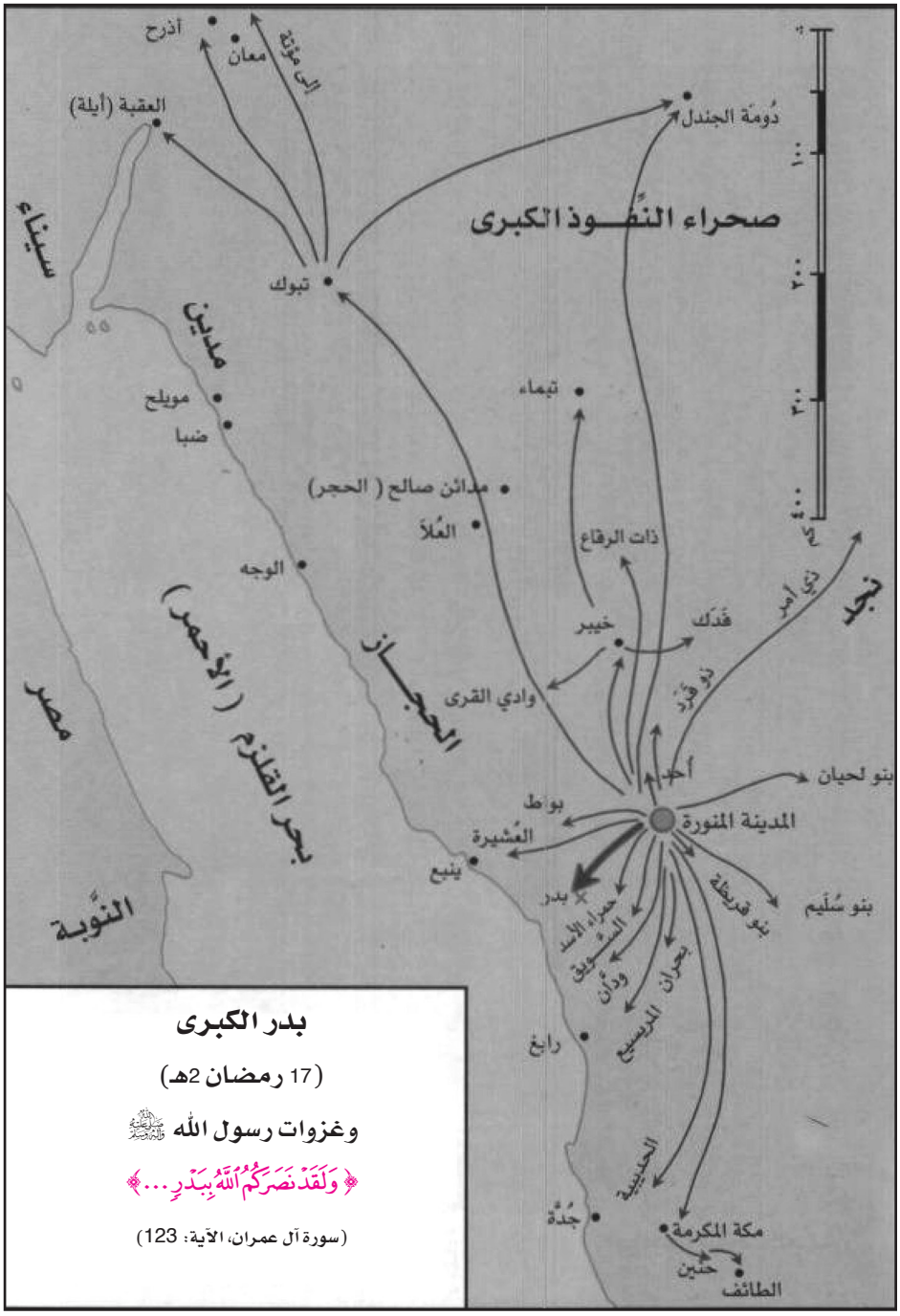

بدر الكبرى

(17 رمضان 2هـ)

وغزوات رسول الله ﷺ

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ... ﴾

(سورة آل عمران، الآية: 123)

خلاصة

- تختلف المرحلة المكّية من حياة النبيّ ﷺ عن المرحلة المدنيّة، حيث اتجه في المدينة إلى تعزيز القدرات الدفاعيّة للدولة الإسلاميّة، ووضع النواة الأولى للجيش الإسلاميّ، وقاد مجموعة من المعارك وأرسل العديد من السرايا العسكريّة.
- كانت أهم سرايا وغزوات النبيّ ﷺ بدر الكبرى لأنّها حطّمت معنويّات قريش ورفعت من معنويّات المسلمين، ورسّخت عقائدهم، وأدخلت الرعب في نفوس المشركين، وفتحت الأبواب أمام النبيّ ﷺ في الانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.
- في معركة أُحد كان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، ولكنّهم نتيجة لعدم التزامهم بأوامر النبيّ ﷺ وتوجيهاته خسروا المعركة، وكانت هزيمة أُحد درساً قاسياً وصعباً للمسلمين.

مظهر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الاهتمام بالطهارة والنظافة، فلم يكن يُماثله أحدٌ في نظافة جسمه وملابسه وطيب رائحته.

- فقد كان يغتسل في أغلب الأيّام مُعتبراً ذلك جزءاً من العبادات، وكان يُداوم على الوضوء ليبقى على طهارة، حتّى ورد عن بعض أصحابه: ما رأيت أوضأ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان يغسل شعر رأسه الذي كان يصل إلى شحمة أُذنه بماء السدر، ويُمشّطه، ويدهنه بزيت البنفسج، ويُعطّر جسده وملابسه بالمسك، وكان يُعرف في الليلة الظلماء قبل أن يُرى بالطّيب، فيُقال: هذا النبيّ.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: **«كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يمرّ في طريق فيمرّ فيه أحدٌ بعد يومين أو ثلاثة إلّا عرف أنّه قد مرَّ فيه لطيب عُرفه»**[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«كان رسول الله يُنفق على الطّيب أكثر مما يُنفق على الطعام»**[2].

وكان لا يُعرض عليه طيب إلّا تطيّب به. وقد ورد عن أنس بن مالك: صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين وشممت العطر كلّه، فلم أشمّ نكهة أطيب من نكهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُنظّف أسنانه بالسواك عدّة مرّات في اليوم، ولا سيّما ليلاً قبل النوم وعند الاستيقاظ.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 442.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 16، ص 248.

- كان يغسل يديه وفمه قبل تناول الطعام وبعده، متجنّباً أكل الخضراوات الكريهة الرائحة.

وكان شديد العناية بمظهره وهندامه، فقد روي أنّه كان يتجمّل لأصحابه فضلاً عن تجمّله لأهله.

- وكان يُوصي أصحابه وأتباعه أن يلتزموا نظافة أبدانهم وملابسهم، وأن يعتنوا بمظهرهم الخارجيّ.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: **«احتبس الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقيل: احتبس عنك الوحي يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وكيف لا يحتبس عنّي الوحي، وأنتم لا تُقلِّمون أظفاركم»**[1].

وذات يوم رأته إحدى زوجاته وهو ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها، ويُسوّي فيها جمّته إذ لم يكن لديه مرآة ينظر فيها، وهو خارجٌ إلى أصحابه، فقالت: بأبي وأُمّي، تتمرّأ في الرَّكوة وتُسوّي جمّتك وأنت النبيّ وخير خلقه؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنّ الله يُحبّ من عبده اذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل»**[2].

(1) الحميري القمي، قرب الإسناد، ص 24.

(2) السيد الطباطبائي، سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ص118.

الدرس التاسع

جهاد النبيّ ﷺ (2)

معركة الخندق - صلح الحديبيّة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يعرف أسباب وظروف معركة الخندق وعناصر القوة فيها.

2- يحلّل عوامل النصر في معركة الخندق وآثارها.

3- يفهم أسباب صلح الحديبيّة وأهم بنوده وآثاره.

معركة الخندق (الأحزاب)[1]

توالت غزوات الرسول ﷺ لبعض قبائل العرب واليهود بعد معركة بدر وأُحد، ممّا أثار مخاوف اليهود وإحساسهم بالخطر من تعاظم قوّة المسلمين، فاندفعوا للتآمر على الإسلام ونبيّه العظيم ﷺ، وراحوا يُحرِّضون أعداء الإسلام، ويُخطِّطون لتكوين تجمُّع عسكريّ هائل لمُهاجمة المدينة والقضاء على الإسلام.

لقد اتصل اليهود بقريش وغطفان، واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة، إلَّا أنّ أنباء هذه المؤامرة تسرَّبت إلى النبيّ ﷺ فشاور أصحابه، واستقرّ الرأي على حفر خندق حول المدينة لتحصينها، فاستنفر المسلمون لحفر الخندق وشارك هو ﷺ بنفسه في عمليّة الحفر.

تأهّبت أحزاب الكفر والضلال، من قريش وغطفان وبعض القبائل المعادية، وجمعوا رجالهم وأنصارهم ومن تابعهم، فكان تعداد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا قرب المدينة، بينما كان عدد المسلمين - كما في رواية الإمام الصادق عليه السلام [2] - تسعمائة مقاتل تعبّؤوا خلف الخندق بقوّة وشجاعة.

وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينصر دينه، ويوفّر لنبيّه ﷺ عوامل النصر، فيهزم أحزاب الكفر والضلال من دون قتال عنيف بين الطرفين[3].

(1) وقعت هذه المعركة في شوّال من السنة الخامسة للهجرة.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص46، والحرّ العاملي، الوسائل: ج11، ص105.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص197.

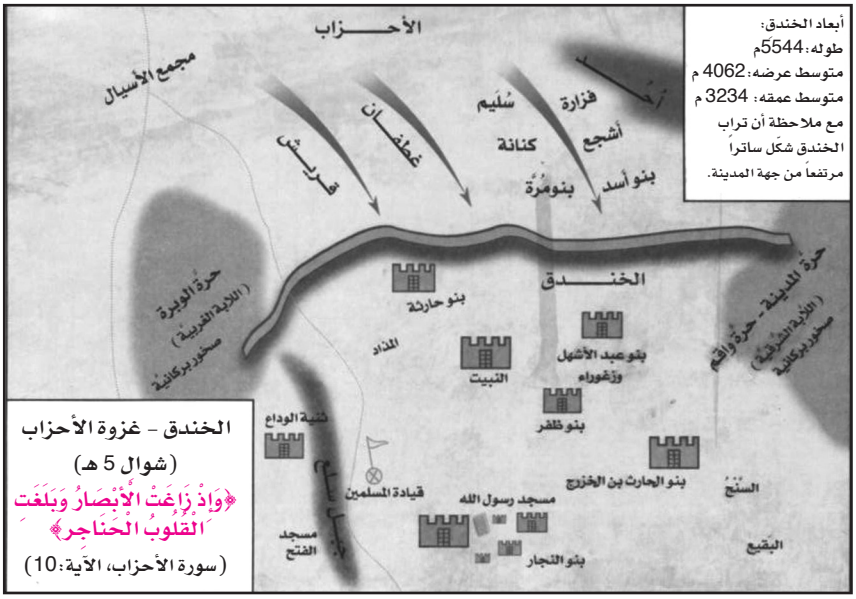

عوامل النصر في معركة الخندق (الأحزاب)

ساهمت أربعة عناصر أساس في تحقيق النصر في هذه المعركة، هي:

1- التخطيط العسكريّ الذي تمثّل بحفر الخندق، حيث ساهم الخندق في حماية المسلمين والمدينة، وفي حرمان العدوّ من سرعة الحركة، وفي تطويل أمد المعركة وجعلها على شكل محاور، لكي تتفاقم أزمات الأحزاب نتيجة لطول زمن الحرب.

2- العمل الاستخباريّ الفعّال الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث أدّى إلى إيقاع الخلاف بين قوى الأحزاب.

3- الدور البطوليّ الذي قام به الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حيث مكّنه الله من قتل عمرو بن عبد ودّ، وهو من أبرز صناديد قريش ورجالاتها، فانهارت قوّة قريش، ويئسوا وشعروا بالضعف والهزيمة.

وقد وصف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم موقف عليّ عليه السلام يوم الخندق بقوله: «**لَمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق، أفضل من أعمال أمّتي إلى يوم القيامة**»[1].

(1) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص32، تحقيق: عبد الرحمن المرعشي، بيروت، دار المعرفة، ط1، 1406هـ.

4- التأييـد الإلهيّ الذي تمثَّل بجنود الله الغيبيّيـن، الذين نزلوا ساحة المعركة، والذي تمثَّل أيضـاً بالرياح والعواصف الهوجاء، التي أصابت معسكر الأعداء فزلزلت استقرارهم، وفرضت عليهم الفرار أذلّاء من دون تحقيق شيء.

نتائج المعركة:

فرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:

1- **ضعـاف الإيمان:** وهم الذين وقعوا تحت تأثيـر الوساوس الشيطانيّة والظنون السيّئة، فعاشوا الخوف والقلق عندما رأوا الأعداء قد تحالفوا ضدهم، فاهتزّ إيمانهم وفقدوا عمق الثقة بالله وبنصره.

وقد صوَّر القـرآن الكريم موقف هذه الفئة بقولـه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

2- **المنافقون:** وقد اتخذوا عدّة مواقف ذكرها القرآن الكريم، هي:

أ. **قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلّا غرورا**، لأنّ الله ورسوله كانا قد وعداهم النصر والفتح، وها هم أمام حشود القوى المُتحالفة لا يقوون على شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[2].

ب. **تثبيط العزائم وشلّ الإرادات عن الجهاد**، قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾[3]، أي لا تقدرون على فعل شيء أمام قدرات الأعداء، فارجعوا من حيث أتيتم.

ج. **خلق الأعذار الواهية من أجل الفرار من ساحة الجهاد**، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 10و11.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 12.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 13.

فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1].

3- **المؤمنون الحقيقيّون:** وهم الذين ـ لمّا رأوا الأحزاب ـ لم ينحرفوا قيد أنملة عن عقيدتهم وإيمانهم، ولم يضعفوا، ولم يُشكّكوا، ولم يتزلزلوا وإنّما عبَّروا عن ثقتهم بوعد الله ورسوله، وعن صدقهم وإخلاصهم وعمق إيمانهم وثباتهم في مواقع التحدّي، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[2].

إرهاصات صلح الحديبيّة

عزّزت الأحداث والمعارك التي وقعت بين رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام من المشركين واليهود موقف المسلمين، وغرست هيبتهم في النفوس، فقرّر الرسول ﷺ أن يسير بأصحابه إلى مكّة ليزور البيت الحرام ويعتمر، بعد أن رأى في المنام أنّه يدخله هو وأصحابه آمنين من غير قتال، كما يُشير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[3].

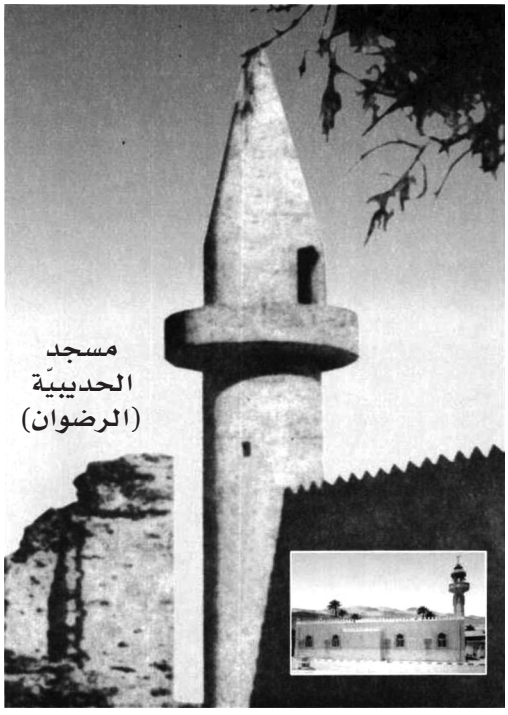
مسجد الحديبيّة (الرضوان)

توجّه الرسول ﷺ ومعه ما يقرب من ألف وأربعمائة من المهاجرين

(1) سورة الأحزاب، الآية: 13.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 22.
(3) سورة الفتح، الآية: 27.

والأنصار نحو مكّة، في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، وهم يحملون السلاح، وقد ساقوا معهم سبعين بُدنة هدياً لتُنحَر في مكّة.

تناهى الخبر إلى قريش ففزعت، وظنّت أنّ محمّداً ﷺ يُريد الهجوم عليها، فراحت تتدارس الموقف وتُجهِّز نفسها لصدّ المسلمين، وأرسلت سَرِيَّة بقيادة خالد بن الوليد كمقدِّمة لجيشها، فبلغ النبيّ ﷺ خبر قريش واستعدادها لقتاله، ولكي يتجنّب المواجهة - حيث لم يكن هدفه الحرب - غيَّر مسيره وسلك طريقاً غير الطريق الذي سلكته قريش، حتّى استقرَّ في وادي الحُديبية[1]، فشكا أصحابه جفاف الوادي وانعدام الماء فيه، فأجرى الله سبحانه معجزة خالدة على يده المباركة، تجلَّت عندما توضّأ ﷺ وألقى ماء المضمضة في البئر التي كان قد نضب ماؤها، فانفجر الماء وارتوى الجمع.

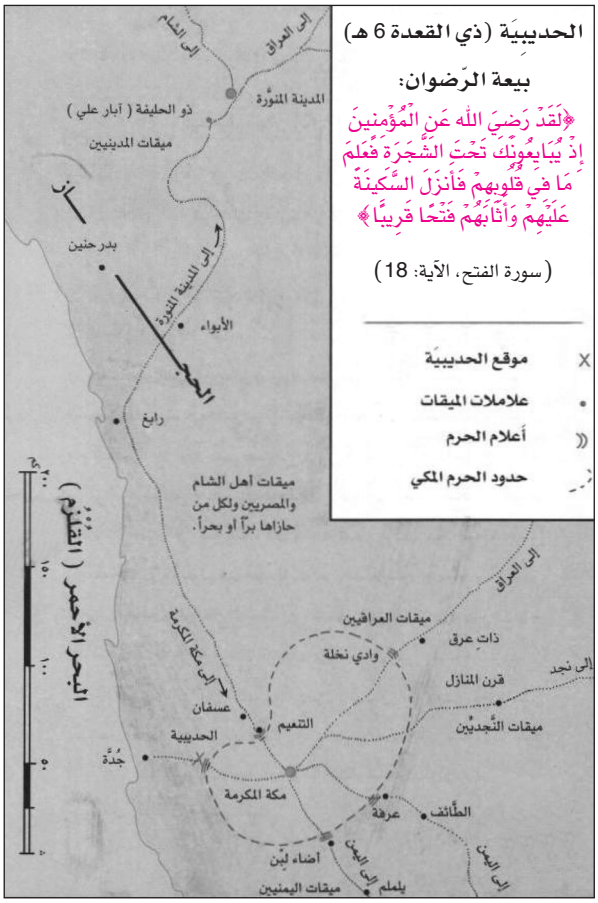

بعدما حطَّ جيش المسلمين في الحُديبية، بدأت رحلة التفاوض بين النبيّ ﷺ وقريش، فبعثت قريش عِدّة مندوبين على التوالي للتفاوض مع الرسول ﷺ واستيضاح أهدافه، فأبلغهم النبيّ ﷺ

(1) وادي الحديبيّة: مكان يبعد عن مكّة حوالي عشرين كيلو متراً.

بجواب واحد: «إنّا لم نجئ لقتال ولكنّا جئنا معتمرين». ولكنّ قريشاً لم تقتنع بذلك واتهمت بعض مبعوثيها بالجُبْن والكذب، فقرّر النبيّ ﷺ أن يبعث من جهته سفيراً إلى قريش، ليُوضِّح لها الهدف الذي جاء المسلمون من أجله، فاختار خراش بن أميّة من خزاعة لأداء المهمّة، إلّا أنّ خراشاً ما إن بلغ مكّة حتّى عقروا بعيره، وأرادوا الفتك به لولا أن منعته الأحابيش، فرجع إلى معسكر النبيّ ﷺ وأخبره بما جرى معه.

لم ييأس رسول الله ﷺ رغم التصلُّب الذي أبدته قيادة قريش ضدّ محاولاته ﷺ السلميّة، وكأنّه كان يرى بنظره الثاقب النتائج الطيّبة التي ستجنيها الدعوة الإسلاميّة، إذا ما سادت العلاقات السلميّة فترة من الوقت مع قريش، فأرسل عثمان بن عفان إلى مكّة فاعتقلته قريش ثلاثة أيّام حتّى ظنّ المسلمون أنّه قُتل.

لم يجد الرسول ﷺ بُدّاً من التهيّؤ للقتال، بعد فشل كلّ محاولاته الودِّيّة لدخول مكّة، وبعد الموقف السيّء الذي وقفته قريش من سفرائه إليها، فدعا الناس إلى البيعة على الصمود بوجه قريش، فانهال عليه المسلمون يُبايعونه، وهو واقف تحت شجرة سُمّيت فيما بعد شجرة الرضوان نسبةً إلى البيعة التي تمّت تحتها.

بنود صلح الحديبيّة

تَخوَّفت قريش من استعداد المسلمين للقتال ومبايعتهم الرسول ﷺ على الصمود، بعدما بلغتهم أنباء بيعة الرضوان، فقرّرت استئناف المفاوضات، وأرسلت سهيل بن عمرو سفيراً إلى النبيّ ﷺ، وكلّفته أن يسعى لمصالحة محمّد ﷺ شرط أن يرجع عنهم هذا العام، فالتقى سهيل بالرسول ﷺ، وجرت مفاوضات طويلة انتهت أخيراً بالاتفاق على إبرام معاهدة هدنة بين الطرفين، وتمّت الموافقة على جميع بنودها، ودعا الرسول ﷺ الإمام عليّاً عليه السلام فكتب الوثيقة، وكان من أبرز بنودها:

1- اتفق الطرفان على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

2- مـن أتى محمّداً ﷺ من قريش بغيـر إذن وليّه رَدّهُ عليهـم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يردّوه عليه.

3- مـن أحـبّ أن يدخل فـي عقد محمّد ﷺ وعهـده (أي يتحالف معـه) كان له ذلـك، ومن أحـبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم كان لـه ذلك أيضاً، من غير حرج عليه من أحد الطرفين.

4- أن يرجع النبيّ ﷺ بمن معه هذا العام، على أن يأتي في العام القادم فيدخل مكّـة ويُقيـم فيها ثلاثـة أيّام، ولا يدخـل عليها بسـلاح إلّا سـلاح المسافر، والسيوف في القُرَب.

5- أن لا يكون الإسلام ظاهراً بمكّة، ولا يُكره أحد على دينه، ولا يُؤذى ولا يُعيَّر.

6- لا إسلال (سرقة) ولا إغلال (خيانة)، بل يَحترِم كلّ الأطراف أموال الطرف الآخر، فلا يخونه ولا يعتدي عليه بسرقة.

7- أن لا تُعين قريش على محمّد ﷺ وأصحابه بنفسٍ ولا سلاح.

وبموجب هذه المعاهدة (البند3) تحالفت خزاعة مع النبيّ ﷺ، وتحالفت كنانة مع قريش.

نتائج صلح الحديبيّة

كان المسلمـون لا يُدركون الآثار والمعطيـات الإيجابيّة والبنّاءة، التي ستحصل من وراء هذا الصلح في المستقبل، فأظهر بعضٌ منهم مواقف متعنّتة لكي يصرفوا رسول الله ﷺ عـن إمضائه؛ ولكنّ الأمور سارت مثلما كان يتوقّع رسول الله ﷺ، ونتجت عن هذا الصلح مُعطَيات وآثار سياسيّة واجتماعيّة متعدِّدة، نُورد قسماً منها في ما يلي:

1- الاعتـراف الرسميّ بالمسلمين من قِبَـل المشركين، وذلك من خلال توقيعهم لمعاهـدة مُشتركة معهم، في الوقت الـذي كان فيه المشركون لا يُقيمون وزناً للمسلمين.

2- إتاحة الفرصة أمام النبيّ ﷺ لنشر الإسلام على نطاقٍ واسع بعدما كان مشغولاً بالتصدّي لمؤامرات قريش، فبعد تجميد الصّراع والاتفاق على الصلح، عاشت المنطقة هدوءاً نسبيّاً قام خلاله النبيّ ﷺ بأوسع نشاط تبليغي، ووجّه سفراءه إلى كبار أمراء العرب المشركين وزعمائهم، يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك وجّه مبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة إلى الإسلام.

3- أزال صلح الحديبيّة الموانع الماديّة والنفسيّة، التي كانت وضعتها قريش بين الناس وبين الإسلام، وسُمح لمختلف القبائل المُشركة المنتشرة في الجزيرة بالإتّصال بالمسلمين، والتعرُّف إلى مبادئ الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، فدخل كثير من الناس في الإسلام، بل لقد دخل فيه خلال سنتين أكثر ممّا دخل فيه على امتداد السنوات الماضية، بدليل أنّ الرسول ﷺ خرج إلى الحديبيّة في ألف وأربعمائة، بينما خرج في فتح مكّة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف مقاتل[1].

4- أتاح الصلح فرصة للنبيّ ﷺ ليخوض بهدوء صراعاً ضدّ القوى الأخرى المضادّة للإسلام، كاليهود والبيزنطيّين وحلفائهم العرب.

5- أدّى الصلح ـ نوعاً ما ـ إلى فتح مكّة؛ لأنّه بموجب المادّة الرابعة منه تُركت للقبائل الأخرى حرّيّة التحالف والانضمام إلى قريش أو إلى المسلمين، فتحالفت قبيلة خزاعة مع المسلمين. وقد نقضت قريش هذا الصلح عندما هاجمت خزاعة، ونتيجة لذلك أقدم النبيّ ﷺ على فتح مكّة.

فضلاً عن الكثير من الأمور التي أعرضنا عن ذكرها اختصاراً، ويكفينا في ذلك وصف الله عزَّ وجلَّ هذا الصلح بـ«**الفتح المبين**».

(1) الطبرسيّ، إعلام الورى، ص 98، والعلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص363.

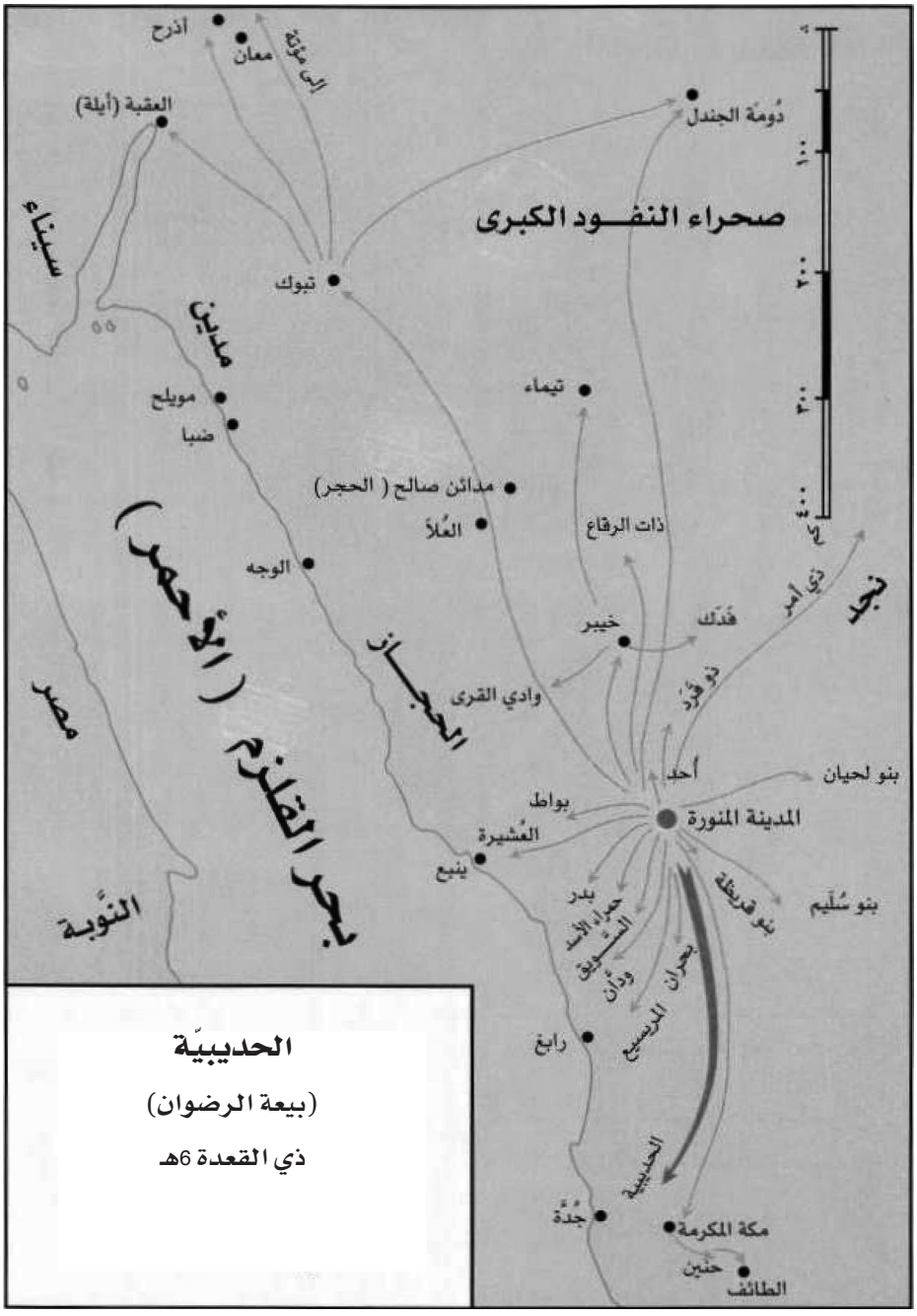
أذرح
معان
إلى مؤتة
العقبة (أيلة)
دُومَة الجندل
صحراء النفـــود الكبرى
سيناء
تبوك
مدين
مويلح
ضبا
تيماء
مدائن صالح (الحجر)
العُلاَ
ذات الرقاع
الوجه
خيبر
فَدَك
ذي أمر
نجد
وادي القرى
الحجـــاز
ذو قَرَد
مصر
البحر القلزم (الأحمر)
أحد
بنو لحيان
بواط
المدينة المنورة
العُشيرة
ينبع
بنو سُلَيم
بنو قريظة
بدر
حمراء الأسد
السُّويق
ودّان
بحران
المريسيع
رابغ
الحديبية
جُدَّة
مكة المكرمة
حُنين
الطائف
النوبة
الحديبيّة
(بيعة الرضوان)
ذي القعدة 6هـ

خلاصة

- ساهمت أربعة عناصر في تحقيق النصر في معركة الخندق، التخطيط العسكريّ الـذي تمثَّـل بحفر الخنـدق، العمل الاستخبـاريّ الفعّال، الـدور البطوليّ للإمام عليّ عليه السلام، التأييد الإلهيّ الغيبيّ.
- وفـرزت حرب الخنـدق المسلمين إلى ثلاث فئات، ضعـاف الإيمان، المنافقين، والمؤمنين الحقيقيّين.
- وكان لصلـح الحديبيّـة بـركات عديدة، حيث مهّـد لدخول كثير مـن الناس إلى الإسلام، ومهّد لفتح مكّة وانتصار الإسلام على الكفر القرشيّ.

زهد النبيّ ﷺ

إذا أردنا أن نُكوِّن فكرة واضحة عن زهد رسول الله ﷺ، علينا أن نعرف طعامه ولباسه ومسكنه ومُدّخراته.

- **أمّا طعامه ﷺ**: فقد كان خبز رسول الله ﷺ خبز الشعير في أكثر أحيانه، وما أكل خبز طحين منخول حتّى قُبِض، بل ما شبع من خبز الشعير قطّ.

فعن العيص بن قاسم قال: قلت للصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: حديث يُروى عن أبيك عليه السلام أنّه قال: **«ما شبع رسول الله ﷺ من خبز برّ قطّ، أهو صحيح؟ فقال: لا، ما أكل رسول الله ﷺ من خبز برّ قطّ، ولا شبع من خبز شعير قطّ»**[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«ذُكر اللحم عند رسول الله ﷺ فقال: ما ذقته منذ كذا»**[2].

وقالت عائشة: **«والذي بعث محمّداً ﷺ بالحقّ ما كان لنا منخل، ولا أكل النبيّ ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قُبض»**[3].

- **وأمّا لباسه ﷺ**: فيكفينا أن نعلم أنّه ﷺ ـ كما تقول عائشة ـ **«ما اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين ولا رداءين ولا إزارين، ولا من النعال، وكثيراً ما كان يلبس المُرقَّع من الثياب»**.

- **وأمّا مسكنه ﷺ**: فقد كان غرفة واحدة، لكلّ زوجة من زوجاته، فيها ينام وفيها يجلس وفيها يأكل، وكان أثاثها بسيطاً زهيد الثمن، وكان فراش رسول الله ﷺ ومخدّته من جلد محشوّ بالليف.

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 24، ص244.
(2) م.ن، ص20.
(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج19، ص189.

يـروي أمير المؤمنين عليه السلام فيقـول: «**كان فراش رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم عباءة وكانت مرفقتـه أدم حشوهـا ليف.. وكان كثيراً ما يتوسّد وسادة له من أدم حشوها ليف، ويجلس عليهـا، وكانت له قطيفـة فدَكيّة يلبسهـا يتخشّع بها، وكانـت له قطيفة مصريّـة قصيـرة الخمـل، وكان لـه بسـاط مـن شعـر يجلس عليـه**»[1].

- **وأمّـا مدّخراتـه صلى الله عليه وآله وسلم**: فإن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يدّخر شيئـاً من المال ولا من الأشياء.

قال أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يَدَّخر شيئاً لغد.

ويكفي أن نعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا تُوفّي ما ترك إلّا سلاحه وبغلته ودرعاً مرهونة.

فعـن ابن عباسـ قال: «**إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم تُوفّـي ودرعه مرهونة عنـد رجل من اليهود على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها رزقاً لعياله**»[2].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج16، ص253.

(2) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج3، ص 123.

الدرس العاشر

جهاد النبيّ ﷺ (3)

الفتح المبين - معركة حُنين

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يعرف سبب نقض قريش لصلح الحديبيّة، ونتائج ذلك.

2- يحلِّل الأسباب التي أدّت إلى فتح مكّة.

3- يُلخِّص أحداث معركة حُنَيْن، ويستفيد من دروسها.

قريش تَنقض العهد

كان من أحد بنود صُلح الحُديبيّة إقرار هدنة لمدّة عشر سنوات بين المشركين والمسلمين. وقد استفاد النبيّ ﷺ من حالة الأمن والاستقرار بعد أن كفّت قريش ممارساتها العدائيّة، وخطا ﷺ بعض الخطوات البعيدة المدى، وهادن الكثير من القبائل المعادية التي كانت تقطن إلى جوار المدينة، وعقد معاهدات صلح معها.

وبعد سنتين نقضت قريش معاهدة صُلح الحُديبيّة؛ وذلك عندما انضمّت إلى حلفائها من قبيلة «كنانة» التي أقدمت على مهاجمة قبيلة «خُزاعة» حليفة المسلمين مخالفةً بذلك الهدنة القائمة بين الطرفين بموجب الصُّلح، فاستنصرت خُزاعة رسول الله ﷺ، وشعرت قريش بخطورة المجازفة التي أقدمت عليها فأوفدت أبا سفيان إلى المدينة، ليُؤكّد العهد مع رسول الله ﷺ وليتفادى نتائج الأحداث، إلّا أنّ محاولاته في المدينة لم تُجدِ نفعاً بعدما رفض النبيّ ﷺ مقابلته لنقضه العهد.

فتح مكّة[1]

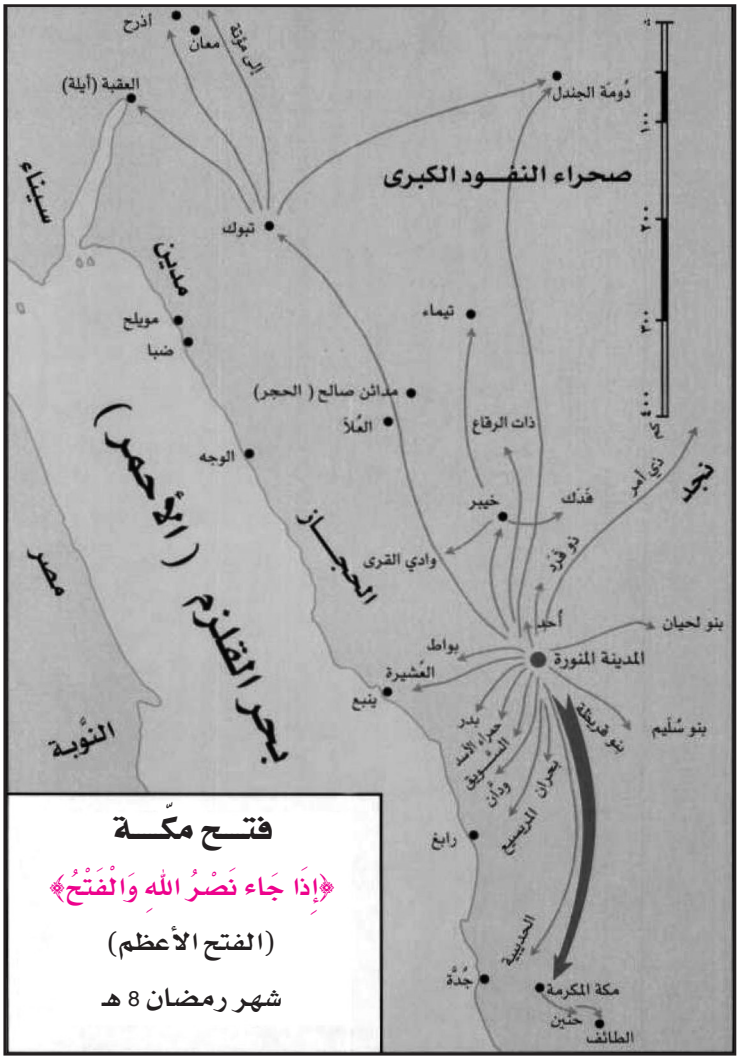

أعلن النبيّ ﷺ النفير العامّ بين المسلمين، وجهّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وقرّر الهجوم على مكّة، ولكنّه لم يكشف عن الوجهة التي يُريد أن يقصدها؛ لكي يُحافظ على مبدأ المُباغتة[2]، وليُصادر إمكانيّة الدفاع من يدها، ولئلّا يقع قتال

(1) تمّ فتح مكّة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص39.

في مكّة. وكان يدعو ربّه قائلاً: «**اللهم خذ العيون والأخبار من قريش نُباغتها في بلادها**»[1]. ولكنّ الخبر تسرّب إلى حاطب بن بلتعة الذي كتب إلى قريش بذلك وأعطى الكتاب إلى امرأة، فوضعته في شعرها وتوجّهت إلى مكّة، فعرف النبيّ ﷺ بهذا العمل الجاسوسيّ الخطير، وبعث الإمام عليّاً عليه السلام والزبير ليقبضا عليها، فأدركاها في منطقة ذي الحليفة، وانتزع منها الإمام عليه السلام الكتاب بالتهديد والقوّة وأرجعاها إلى المدينة. وفي شهر رمضان من العام الثامن للهجرة تحرّك الجيش الإسلاميّ سرّاً حتّى وصل إلى مشارف مكّة وطوّقها.

أسلوب الحرب

استخدم النبيّ ﷺ الحرب النفسيّة في هذه الغزوة، فأشعل النيران على الجبال على مقربة من مكّة، ليُشعر قريشاً بقوّة وكثرة الجيش، وليُثير الرعب في قلوب الطغاة، وليحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال ولا إراقة دماء.

خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وغيرهما ليتجسّسوا الأخبار ففوجئوا بالنيران تُطوِّق مكّة، وفي هذه الأثناء التقى العبّاس بن عبد المطّلب بأبي سفيان[2] وأشار عليه بأنْ يذهب به إلى رسول الله ﷺ. وبعد أن أخذ له الأمان، رتّب له لقاءً مع النبيّ ﷺ، وحصل اللقاء صبيحة اليوم التالي، فقال له ﷺ: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّه لا إله إلّا الله**» فقال: بأبي أنت وأمّي ما أحلمك وأكرمك.. فقال ﷺ: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله**»؟ فقال: بأبي أنت وأمّي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه والله فإنّ في النفس منها حتّى الآن شيئاً. وهنا تدخّل العباس لإنقاذ أبي سفيان، فشهد أبو سفيان للنبيّ ﷺ بالنبوّة، وفي نفسه أشياء وأشياء ظلّت حتّى موته.

(1) الواقدي، المغازي، ج 2، ص796.

(2) راجع ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص42 - 44 - 46.

كان إسلام أبي سفيان بمثابة إزالة لكلّ العقبات أمام إسلام البقيّة من زعماء الكفر من قريش، ولكنّ النبيّ ﷺ استتماماً للضغط النفسيّ على قريش، ولكي تستسلم دون إراقة الدماء، قال للعبّاس: «**يا عبّاس، احبسه بمضيق الوادي عند خضمّ الجبل حتّى تمرّ به جنود الله فيراها**».

ولإشاعة الاطمئنان إلى رحمة الإسلام، ورحمة النبيّ ﷺ، وإرضاءً لغرور أبي سفيان كي لا يُكابر قال ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن**»[1].

دخول مكّة

ودخل رسول الله ﷺ مكّة بتلك الحشود التي تنساب خلفه فاتحاً من غير قتال، فلمّا انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته فاستلم الركن وكبَّر، فكبَّر المسلمون لتكبيره، ثمّ طاف بالبيت، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً وكان «هُبل» أعظمها، فقال ﷺ للإمام عليّ عليه السلام: «**أعطني يا عليّ كفّاً من الحصى**»، فقبض له الإمام عليه السلام كفّاً فناوله، فرماها به وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2]، ثمّ أمر بالأصنام فأُخرجت من المسجد فطُرحت وكُسرت، ثمّ أمر أن تُفتح الكعبة، فدخلها وصلّى فيها وأزال كلّ ما كان فيها من تماثيل وصور، ثمّ أشرف من بابها على الناس وقال: «**لا إله إلّا الله وحده لا شريك له الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..**»[3]، ثمّ توجّه إلى المكّيّين وسألهم: «**ماذا تَرَون أنّي فاعل بكم**»؟ فقالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، فقال ﷺ: «**إنّي أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، إذهبوا فأنتم الطلقاء**»[4].

(1) راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج2، ص 401.
(2) سورة الإسراء، الآية: 81.
(3) راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج2، ص 416.
(4) م.ن، ص411.

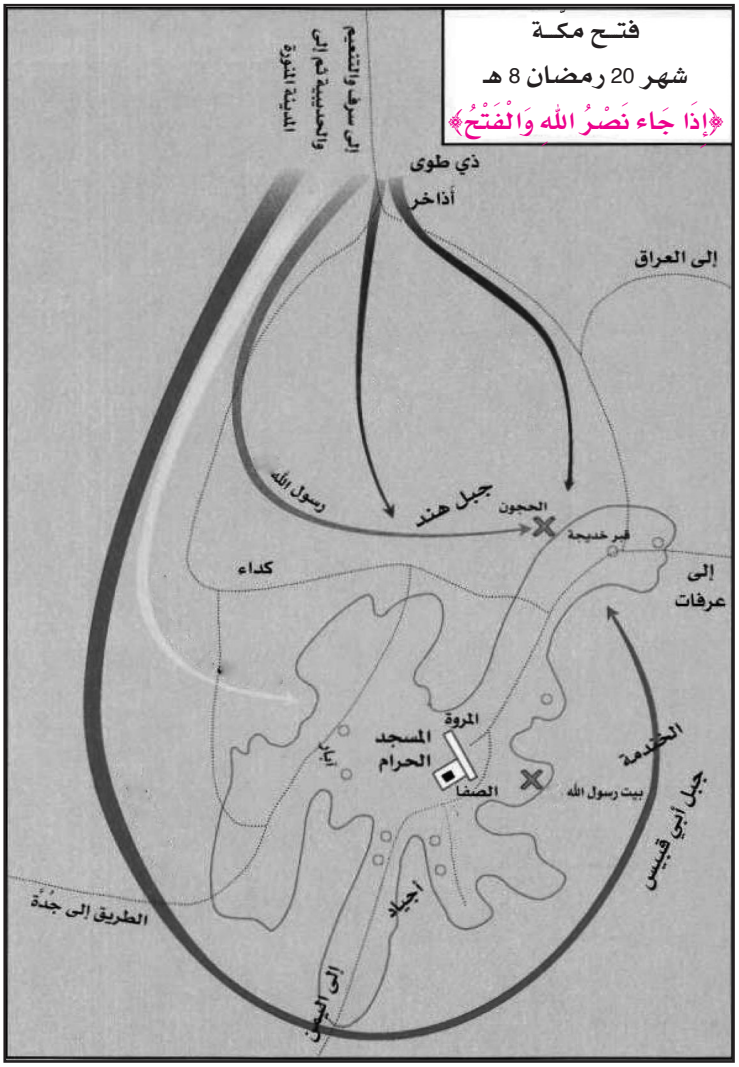

وبذلك ضـرب الرسول ﷺ للأجيال في كلّ عصرٍ وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفُّع عن الحقد والانتقام.

وكان مـن نتائج هذا الفتح سقـوط القلعة الحصينة والقاعـدة المركزيّة للمشركين، وولّى عهد عبادة الأصنام إلى غير رجعة، وبعد سقوط مكّة أخذت وفود القبائل تأتي وتُعلن إسلامها وطاعتها للإسلام عدا قبيلتي هوازن وثقيف اللتين أسلمتا بعد غزوة حُنَيْن.

غزوة حُنين[1]

شـكّل فتح مكّة وانتصـار النبيّ ﷺ العظيم عهداً جديداً من التوحيد، بعد طول فترة مـن الشرك. وترامـت إلى أسماع النبـيّ ﷺ أنّ قبيلتي **هوازن وثقيف** قـد أعدّتا العُدَّةً لمحاربـة الإسلام، فعزم ﷺ علـى الخروج لملاقاتهم قبل أن يُفاجِئـوه بالجيش الكبير الذي نظّموه بالتعاون مع بعض القبائل الأخرى، بقيادة مالك بن عوف (زعيم هوازن)[2].

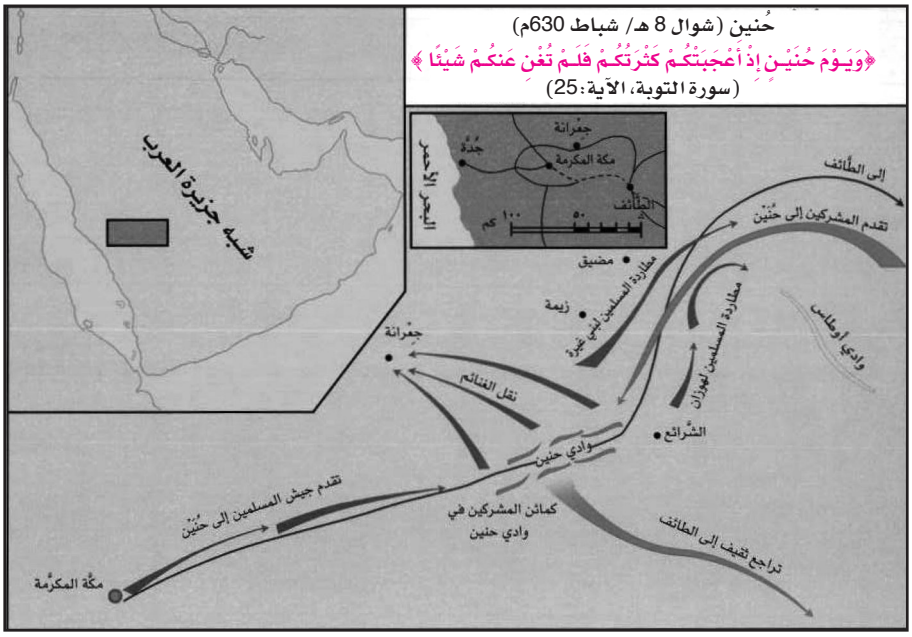

انطلـق النبيّ ﷺ من مكّة في مطلع شوّال على رأس اثني عشر ألف مقاتل، وعيّن عتاب بن أسيد لإدارة الأمور في مكّة. وسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم مضطرّين إلى اجتياز وادٍ من أودية تهامة، شديد الانحدار يُدعى حُنيناً، في طريقهم لمواجهة التجمّـع الوثنـيّ. وكان المشركـون قد سبقوهم إلـى الوادي واتخـذوا مواقع لهم في شعابـه، وتهيـأوا للانقضاض علـى المسلمين في جـوٍّ يسوده المطـر والضباب. وما

(1) حنين: واد إلى جانب ذي المجاز أو ماء إلى قرب الطائف، يبعد ثلاث ليال عن مكّة.
(2) الطبرسيّ، إعلام الورى، ص 113.

إنْ دخل المسلمون الوادي حتّى فاجأهم أعداؤهم بهجوم مُباغِت، فأصابهم الفزع والاضطراب وفرّوا راجعين لا يلوون على شيء، ولم يثبت مع النبيّ ﷺ غير الإمام عليّ عليه السلام وجماعة من بني هاشم[1]، والنبيّ ﷺ يُنادي بالمسلمين، ثمّ أمر عمّه العبّاس أن يلحق بالفارّين ويُناديهم، ولمّا سمع المسلمون صوت العبّاس، وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين منهم، بادروا للعودة إلى ساحة المعركة واستقبلوا العدوّ بصدورهم، وقاتلوا ببسالة على قِلّتهم بعدما رأوا رسول الله ﷺ يُباشر القتال بنفسه بشجاعة ومن حوله الإمام عليّ عليه السلام وبنو هاشم.

تمكّن الإمام عليه السلام من قتل حامل راية هوازن، وبدأت الكفّة تميل لصالح المسلمين، وما لبث المشركون أن أخذوا بالتراجع، وأُصيبوا بالهزيمة وفرّوا من أرض المعركة، تاركين وراءهم الأموال والنساء والأولاد، وأسر المسلمون منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف أسير، إضافة إلى غنائم أخرى[2].

حصار الطائف

واصلت قوّات المسلمين ملاحقتها للعدوّ، وتراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف، وعسكر بعضهم في «أوطاس»، وتوجّهت فئة أخرى نحو «نخلة» فلحق المسلمون بهم إلى هاتين المنطقتين وأوقعوا بهم شرّ هزيمة. تمكّن مالك بن عوف من الفرار مع بعض الجيش إلى الطائف، واعتصم بحصونها المنيعة وأعدّ العُدَّة مع جيشه للقتال، فحاصرهم النبيّ ﷺ بضعاً وعشرين يوماً، وحصل قتال عنيف استعمل فيه المسلمون لأوّل مرّة آلات الحصار كالمنجنيق، ونظراً لاقتراب شهر ذي القعدة الذي هو من الأشهُر الحُرم قرّر النبيّ ﷺ رفع الحصار؛ لأنّه لم يَعُد يرى خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى.

وفي طريق عودته ﷺ وعند وصوله إلى «الجعرانة» (محلّ تجميع الأسرى

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 574 – 575.

(2) تاريخ الطبري، ج3، ص132.

والغنائـم) أرسلـت إليه هـوازن وفداً لالتماس العفـو عنده، وأعلنـوا إسلامهم، فردّ عليهـم النبيّ ﷺ نساءهـم وأموالهم، وجاء زعيمهم مالك بـن عوف إلى رسول الله ﷺ معلناً إسلامه بعد أن سمع مقولة النبيّ ﷺ: «**أخبروا مالكاً أنّه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل**»، وردّ عليه الرسول ﷺ أهله وماله.

وبعـد تقسيم الغنائم علـى المسلمين في «**الجعرانة**» اتّجه النبيّ ﷺ إلى مكّة في شهـر ذي القعدة، فأتمّ عمرتـه وأحلّ من إحرامه واستخلف على مكّة عتاب بن أسيد ومعه معـاذ بن جبل لتعليم الناس القرآن وأحكام الديـن، وخرج مُتّجهاً إلى المدينة بمـن معه مـن المهاجرين والأنصار، بعـد هذين الإنتصاريـن العظيمين وهما: فتح مكّة، وهزيمة جيشٍ مؤلّف من ثلاثين ألف مقاتل في حُنين.

دروس من حُنين

يُمكن لنا أن نستخلص من غزوة حُنين بعض الدروس والعِبَر، منها:

1- إنّ غرور المسلميـن بأنفسهم، في بداية المعركـة، وإعجابهم بكثرتهم وقوّتهم كان السبب الأساس في الهزيمة، فأراد الله تعالى أن يُعلّمهم أنّ الكثرة لا تُغني شيئاً؛ عندما تفقد الأمّة عناصر الإيمان والإخلاص والصبر والتوكّل على الله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1].

2- إنّ القلّة التي ثبتت في ساحة القتال هي التي حقّقت الانتصار في حُنين، وهم الذين أنـزل الله تعالى عليهم السكينة والطمأنينة. ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

(1) سورة التوبة، الآية: 25.

(2) سورة التوبة، الآية: 26.

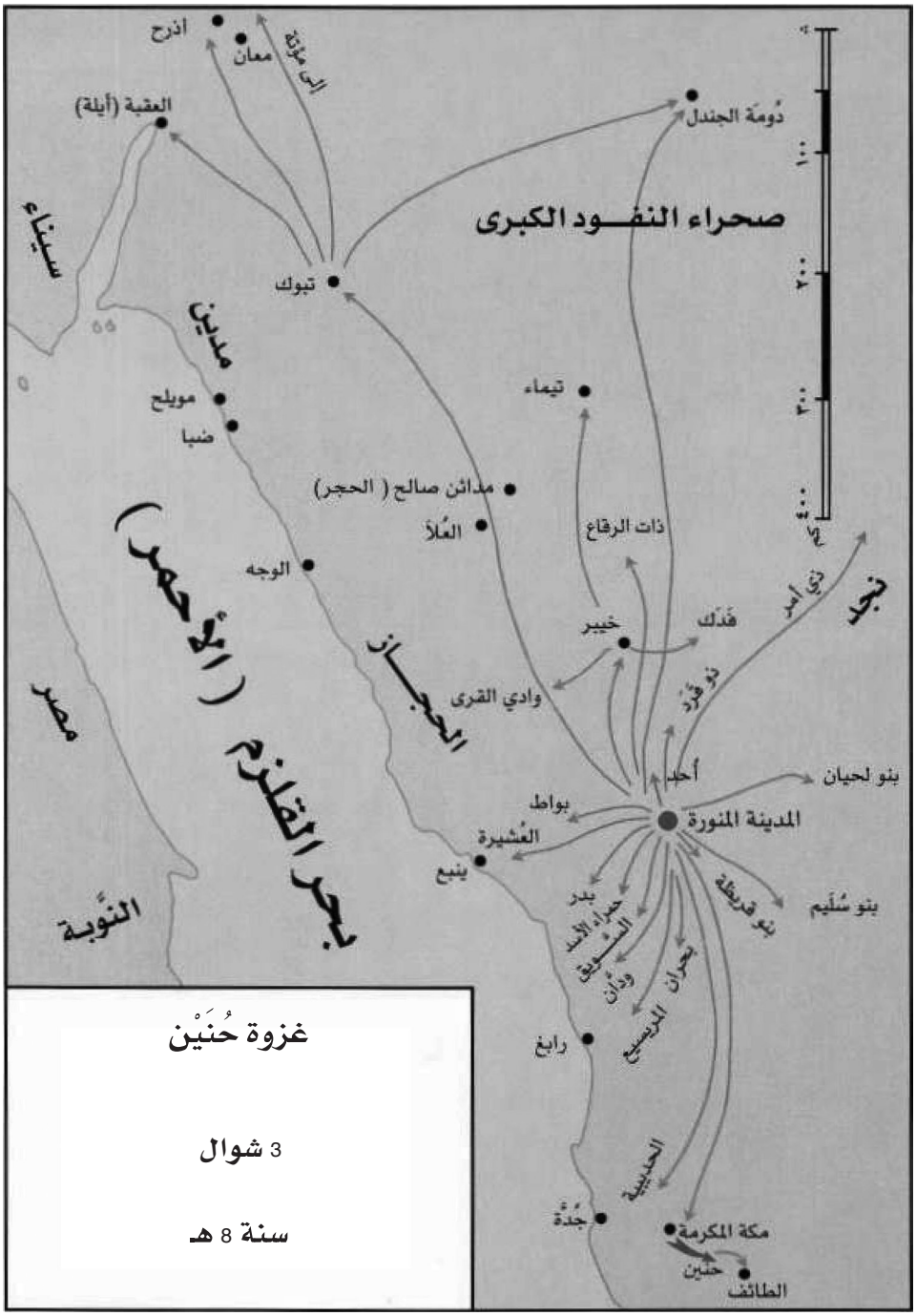
اذرح
معان
إلى مؤتة
العقبة (أيلة)
دُومَة الجندل
صحراء النفـــود الكبرى
سيناء
تبوك
مدين
مويلح
ضبا
تيماء
مدائن صالح (الحجر)
العُلاَ
ذات الرقاع
الوجه
البحر الأحمر
خيبر
فَدَك
نجد
وادي القرى
الحجـــاز
مصر
بنو لحيان
أحد
بواط
المدينة المنورة
العُشيرة
ينبع
بنو سُلَيم
بدر
حمراء الأسد
السُّوَيق
وَدّان
النَّوبة
رابغ
الحديبية
جُدَّة
مكة المكرمة
حُنين
الطائف
غزوة حُنَيْن
3 شوال
سنة 8 هـ

خلاصة

- كان نقض قريش لأحد بنود صلح الحديبيّة مع النبيّ ﷺ سبباً لتوجُّه النبيّ ﷺ بشكلٍ سرّي وسريع نحو مكّة، وتمّ فتحها بغتةً. وكان استسلام أهل مكّة عملاً هائلاً في تأريخ حياة النبيّ ﷺ، فقد توقّف النشاط المعادي للإسلام من أخطر مركز باشر العداء للدين الجديد لأكثر من عشرين عاماً.
- مهّد هذا الفتح الطريق لاستسلام الجزيرة العربيّة كلّها، وسُمّيّ العام الثامن الهجريّ بعام الفتح. وأصبح المسلمون سادة مكّة وحماة البيت الحرام.
- أحدث فتح مكّة واستسلامها للنبيّ ﷺ ردّ فعل عنيف لدى القبائل العربيّة، كهوازن وثقيف وحاولت أن تُوجِّه ضربتها للإسلام، وأفلحت في أوّل الطريق، ولولا ثبات رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وثلّة من المؤمنين لاكتسحت هاتان القبيلتان قوّات المسلمين.
- كانت غزوة حُنين تجربة قيّمة للمسلمين؛ لئلّا يغترّوا بكثرة العدد، فإنّ قُدرة الإيمان هي التي تُؤدّي إلى النصر دائماً.

شجاعة النبيّ ﷺ وثباته

إذا أردنا أن نُكوِّن فكرة واضحة عن مدى شجاعة رسول الله ﷺ فلنستمع إلى شهادة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يصف شجاعة رسول الله ﷺ حيث يقول: «**لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً**»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «**كنّا إذا احمرّ البأس ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه**»[2].

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**أغار المشركون على سرح المدينة فنادى فيها مناد: يا سوء صاحباه[3]! فسمعها رسول الله ﷺ في الجبل فركب في طلب العدوّ، وكان أوّل أصحابه لحاقاً به أبو قتادة على فرس له، وكان تحت رسول الله ﷺ سرج دفّتاه ليف ليس فيه أشر ولا بطر، فطلب العدو فلم يلقوا أحداً، وتتابعت الخيل فقال أبو قتادة: يا رسول الله إنّ العدوّ قد انصرف فإن رأيت أن نستبق. فقال: نعم، فاستبقوا فخرج رسول الله ﷺ سابقاً عليهم، ثمّ أقبل عليهم فقال: أنا ابن العواتك من قريش، إنّه لهو الجواد البَحر، يعني فرسه**»[4].

ولمّا انصرف رسول الله ﷺ يوم أُحُد، أدركه أُبيّ بن خلف الجمحيّ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله ألا يعطف عليه رجلٌ منّا؟ فقال ﷺ: «**دعوه**»، حتّى إذا دنا منه ـ وكان أبيّ قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول: عندي

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 16، ص232.
(2) م. ن.
(3) وفي روايات أخرى، يا سوء صباحاه.
(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص171.

رمكـة أعلفها كلّ يوم فرق ذرة اقتلك عليها، فقـال رسول اللّه ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شـاء اللّه**». تنـاول رسول اللّه ﷺ الحربة من الحارث بـن الصمّة ثمّ استقبله فطعنه فـي عنقه فخدش خدشة، فتدهده عن فرسه وهو يخور خـوار الثور وهو يقول: قتلني محمّـد، فاحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس. فقال: بلى. لو كانت هذه الطعنة بربيعـة ومضـر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ لو بزق علـيّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث يوماً حتّى مات[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص26.

الدرس الحادي عشر

جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (4)

غزوة بني قينقاع - غزوة بني النضير

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يعرف الموقف العدائيّ والعنصريّ لليهود ومواجهتهم للإسلام والمسلمين.

2- يعرف أسباب ونتائج غزوة بني قينقاع ضد اليهود.

3- يحلّل أسباب ونتائج غزوة بني النضير ضدّ اليهود.

مخالفات اليهود

اليهـود قـومٌ نفعيّون، يتّسمـون بالتعنُّت والتكبُّـر، وقفوا موقفاً عنصريّـاً من نبيّ الإسـلام ﷺ لكونه غير يهوديّ، ولأنّهم كانوا يَحْظَـون بمكانة اقتصاديّة واجتماعيّة فـي يثرب، ويحتكـرون الزراعـة وأكل الربا، وكانـوا يستغلّون الخلافـات بين الأوس والخـزرج، فقد أعلنوا عدائهـم للنبيّ ﷺ بعد العهود والمواثيـق، عندما شعروا بأنّ القـوّة ستكون بيـد المسلمين في المستقبـل القريب، وأنّهم سيفقـدون مكانتهم لأنّ النـاس اتّحـدوا تحت لواء الإسـلام، وتعبيراً عن حقدهم على النبـيّ ﷺ قالوا: **«ما يُريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلّا خَالَفَنَا فيه»**[1].

أخـذ اليهـود بتبديل موقفهـم من الرسالـة وانتهجـوا أسلوب المخالفـة، ووضع العراقيـل من خلال عرض مجموعة مـن المطالِب التعجيزيّة وغيـر المنطقيّة، مثل طلبهم إنزال كتاب من السماء عليهم، وإثارة الأسئلة الدينيّة المعقّدة بهدف تشويش أذهـان المسلميـن، وعملوا علـى زرع الفتنة بيـن المسلمين، وحاولوا بعـث الأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج[2].

(1) الحلبي، ج 2، ص332.

(2) سيرة ابن هشام، ج 2، ص160، وابن شهر آشوب، المناقب، ج 1، ص54.

تحويل القبلة

كان النبـيّ ﷺ أثنـاء إقامته في مكّة، ومدّةً من بعد الهجـرة، يُصلّي باتجاه بيت المقدس بأمر من الله تعالى. وبعد أن أسفر اليهود عن عدائهم، اتّخذوا قضية القبلة ذريعـة لنفث سمـوم إعلامهم ضدّ رسـول الله ﷺ، وقالوا بأنّـه لا استقلاليّة له في دينـه، وإنّـه يُصلّي باتجاه قبلتنا، فتـأذّى الرسول من هذا الوضـع. وبعد سبعة عشر شهراً من الهجرة نزل عليه جبرئيل عليه السلام وأبلغه أمر تحويل القبلة نحو الكعبة بعدما صلّـى ركعتين من صـلاة الظهر نحو بيـت المقدس. فكان ذلك الحـدث أمراً صعباً مريراً على اليهود، ولم يَعُد لديهم ذريعة لإطلاق الدعايات ضدّ المسلمين[1].

اليهود في مواجهة الإسلام

حاول اليهود مواجهة الإسلام بكلّ ما لديهم من قوّة عبر الأساليب التالية:

1- تشكيك البسطاء وضعاف النفوس بالإسلام.

2- طـرح الأسئلة التعجيزيّة على النبيّ ﷺ بهدف إفشال دعوته، للإيحاء للناس بعدم صدقه في ادعائه للنبـوّة، وقد حدّثنا القرآن عن ذلك: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2].

3- الضغـط الاقتصاديّ على المسلمين من خلال رفضهم أن يُقرضوا المسلمين مـالاً في بداية إقامتهـم في المدينة؛ حيـث كان المسلمون فـي ضنكٍ ماديٍّ شديد.

4- تحريض أعداء الإسلام ومساعدتهم بكلّ ما أمكنهم ولو بالتجسُّس.

5- إثارة الفتن بين المسلمين.

(1) راجع الآيات الكريمة التي نصّت على تحويل القبلة في سورة البقرة، من الآية: 144.

(2) سورة النساء، الآية: 53.

6- تآمرهم على حياة النبيّ الأعظم ﷺ، وتحريضهم الناس عليه.

7- نقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع النبيّ ﷺ في المدينة كلّ مرّة.

موقف النبيّ ﷺ من اليهود

باءت جميع محاولات اليهود في القضاء على الإسلام بالفشل الذريع، بسبب الوعي والحكمة والأسلوب الذي واجههم به النبيّ ﷺ، والذي يتلخّص باتجاهين:

الأوّل: الاغتيالات المنظّمة لرموزهم وبعض أفرادهم:

فقد تمّ اغتيال بعض أفرادهم ورموزهم الذين ظهر كيدهم، فاغتيل أبو عفك اليهوديّ، الذي كان يُحرِّض على رسول الله ﷺ ويهجوه في الشعر، على يد سالم بن عمير، وقُتلت العصماء بنت مروان اليهوديّة على يد عمير بن عون ليلاً، حيث كانت تعيب الإسلام والمسلمين، وتؤنِّب الأنصار على اتّباعهم لرسول الله ﷺ، وتقول الشعر في هجوه ﷺ، واغتيل كعب بن الأشرف الذي ذهب إلى مكّة بعد «حرب بدر» وحرّض المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وكان يتعرّض بالأذى لنساء المسلمين، واغتيل ابن سنينة وأبو رافع ابن أبي الحقيق من يهود خيبر وغيرهما...

هذه الاغتيالات أدخلت الرعب إلى قلوب اليهود لدرجةٍ أنّه لم يبق في المدينة ومحيطها يهوديّ إلّا وهو خائف على نفسه.

الثاني: الحرب الشاملة والمصيريّة ضدهم:

على الرغم من الاغتيالات لم يتراجع اليهود عن التحريض والتآمر، واستمرّوا في عنادهم وتماديهم في إيذاء المسلمين ونشر الفساد، ونقضهم للمعاهدات التي وقّعوا عليها بملء اختيارهم، فكانت الحرب الشاملة والمصيريّة ضدّهم، فحاربهم النبيّ ﷺ في داخل المدينة «بني قينقاع، وبني النضير»، وحارب في محيطها «بني قريظة»، وحاربهم في خيبر التي كانت تُمثِّل المعقل الأساس لهم في شبه الجزيرة العربيّة.

حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود: غزوة بني قينقاع

نظـراً لكثرة المؤامـرات والإفساد الذي مارسه اليهود ضـدّ النبيّ ﷺ، ونقضهم للعهـود والمواثيـق معه، رأى النبيّ ﷺ فـي هذه الممارسات اليهوديّـة سبباً وفرصةً للتخلُّص مـن شرِّهم ومكرهم، فكان أوّل عملٍ منه تجاههـم هو مواجهة بني قينقاع وإجلاؤهـم عن المدينـة. والسبب الذي حمـل الرسول ﷺ على البـدء بإجلاء بني قينقـاع من المدينـة دون غيرهم هو: أنّهم كانوا يسكنون داخـل المدينة، وكانوا أوّل مـن غَـدَرَ وخان من اليهود. ويذكـر المؤرِّخون أنّ بني قينقاع كانـوا يُمسكون بخيوط اقتصـاد المدينة، وأكثر الناس خطراً على المسلمين لأنّهم يعيشون بينهم، ومارسوا الكثير مـن الأعمال الإيذائيّة، وقاموا بالحرب الباردة (الإعلامية) ضدّهم، ونشروا الأكاذيـب والشعارات القبيحة، وأنشدوا القصائد التـي من شأنها تحقير المسلمين والإسـاءة إليهم. وكانوا قد عاهدوا النبيّ ﷺ علـى المسالمة وعدم معاونة الأعداء، فلمّا كانت حرب بـدر أظهروا البغي والحسد ونقضوا العهد، وكانوا أوّل من استجاب لطلـب قريش في نصب العـداء للمسلميـن والغدر بهـم. وقد صعّدوا مـن تحدّيهم للمسلميـن عندمـا دخلت امرأة مسلمـة سوق الصاغة في المدينـة ـ الذي كان تحت سيطرتهـم ـ فاجتمـع عليها جماعة من اليهود وأرادوهـا أن تكشف عن وجهها فأَبَت، فعمـد يهوديٌّ من خلفها وعقد طرف ثوبها إلى ظهرهـا، فلمّا قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها، فصاحت تستغيث بالمسلمين، فوثب رجلٌ من المسلمين على من فعل ذلك فقتله، وشدّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستنجد أهل المسلم بالمسلمين، ووقع بينهم وبين بني قينقاع الشرّ، فجمع النبيّ ﷺ اليهود وحذّرهم وطلب منهم أن يكفّوا عـن أذى المسلمين ويلتزموا بعهد الموادعة، أو يُنزِل بهم ما أنزله بقريش[1]، فقالوا له: «**لا يَغُرَّنّك يا محمّد أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة**

(1) يقصد بذلك حرب بدر.

مكّنتك من رقابهم، إنّا والله لئن حاربناك لتعلَمنّ أنّا نحن الناس، وسترى منّا ما لم تره من غيرنا»[1].

فأنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ بهذه المناسبة قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2].

ولذلك لم يبق أمام النبيّ ﷺ إلّا أن يُقاتلهم، فسار إليهم، وكان عددهم حوالي سبعمائة مقاتل، وسلّم الراية للإمام عليّ عليه السلام، وحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشدّ حصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا، وطلبوا من النبيّ ﷺ أن يُخلّي سبيلهم وينفيهم من المدينة، على أن يكون لهم نساؤهم والذريّة، وله أموالهم والسلاح، فقبل منهم ذلك، فوزّع أموالهم وأسلحتهم على المسلمين، وطردهم من المدينة إلى أذرعات بالشام[3].

حروب النبيّ ﷺ ضد اليهود: غزوة بني النضير

وصلت معلومات إلى النبيّ ﷺ مفادها أنّ بني النضير يُخطّطون لاغتياله، فقرّر إجلاءهم عن مواضعهم بعد أن ظهر للعيان فسادهم. وتعامل معهم النبيّ ﷺ بالرفق والتسامح، حيث أنذرهم في البداية بأنّ يخرجوا من حصونهم وينزحوا من يثرب في مدّة عشرة أيّام، ولكنّهم رفضوا الإذعان له أوّل الأمر، ثمّ بدا لهم الإذعان لحكمه ﷺ ورضوا بالجلاء عن يثرب، لكنّ جماعة من المنافقين من بني عوف وعلى رأسهم عبد الله بن أُبيّ بعثوا إليهم: «أن اثبتوا وتمنّعوا فإنّا لا نُسلمُكم. إن قوتلتم

(1) راجع تاريخ الطبري، ج2، ص172.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: 12و 13.

(3) راجع للتفصيل: السبحاني، جعفر، سيّد المرسلين، ج 2، ص121، مؤسسة النشر الإسلاميّ، قم، ط1، 1413هـ، وما بعدها.

قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم»[1].

إلّا أنّ عبد الله بن أُبي خذلهم وغدر بهم، وأنزل الله سبحانه بهذه المناسبة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[2] لذلك امتنعوا عن الإذعان لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واحتموا خلف حصونهم، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ...﴾[3]. وكانت حصونهم مُحْكَمة، وكان من غير المُمكن فتحها في مدّة وجيزة، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقطع نخيلهم وحرقها، ولعلّ النخيل الذي أُحرق كان يُعيق حركة القتال. ولمّا عاب اليهود على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، أنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4]. وكان قطع النخل ضروريّاً ولازماً من أجل قطع آمال بني النضير، وخزيهم وخزي سائر حلفائهم وفي مقدّمهم عبد الله بن أُبي ومن معهم من المنافقين، وكذلك لإفهامهم تصميم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على المواجهة والتحدّي حتّى يفقدوا الأمل بجدوى المقاومة. ويظهر أنّ قطع النخيل وإحراقه، كان سبباً في تسرُّب اليأس إلى قلوبهم، إذ وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إمّا الإذعان لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإمّا الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من إحراق نخيلهم، فاختاروا الإذعان لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، خاصّة بعد أن تَمكَّن الإمام عليّ عليه السلام من قتل عشرة من فرسانهم، فطلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم أن يُجليهم ويكفّ عنهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من

(1) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج 2، ص200.
(2) سورة الحشر، الآيتان: 11 - 12.
(3) سورة الحشر، الآية: 14.
(4) سورة الحشر، الآية: 5.

أموالهم إلّا السلاح، فرضي النبيّ ﷺ بذلك.

ويُشير القرآن إلى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم، ظانّين أنّها ستمنعهم من أمر الله تعالى، كما يُشير إلى هزيمتهم وتخريبهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين المجاهدين بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[1].

(1) سورة الحشر، الآية: 2.

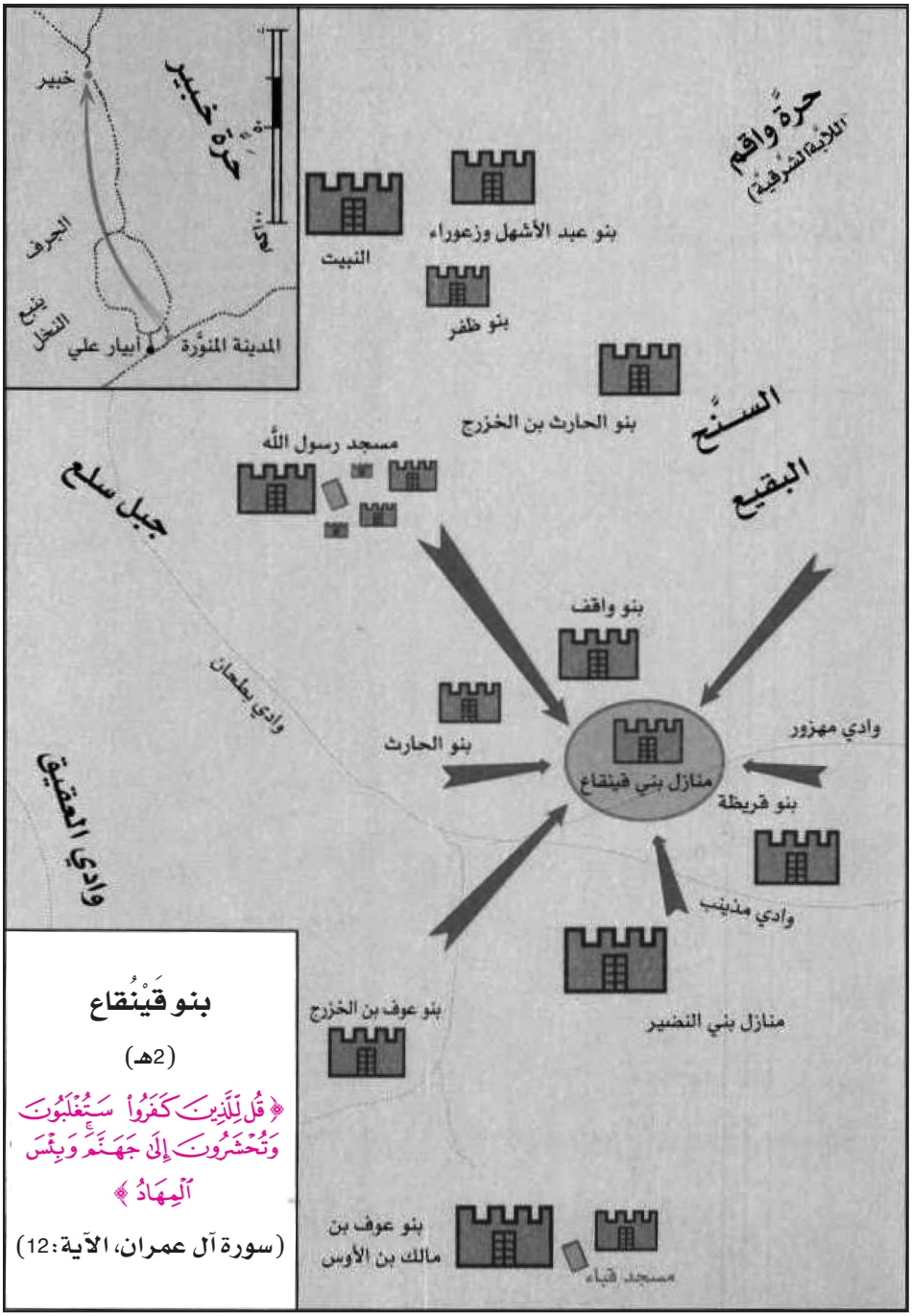

بنو قَيْنُقاع

(2هـ)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

(سورة آل عمران، الآية: 12)

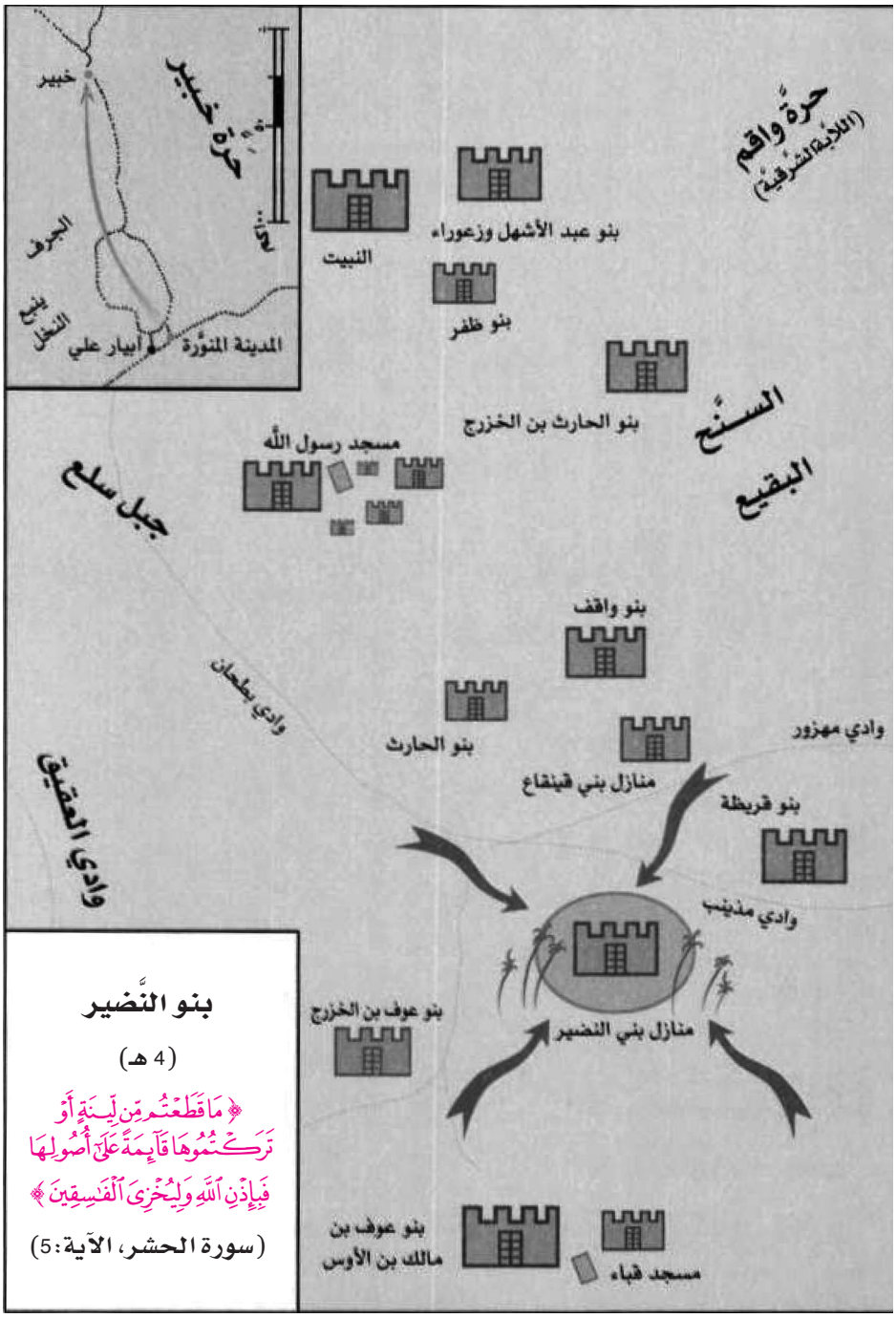

بنو النَّضير

(4 هـ)

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

(سورة الحشر، الآية: 5)

خلاصة

- وقف اليهود من النبيّ ﷺ موقفاً عدائيّاً وعنصريّاً لكونه غير يهوديّ، ونقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها معه مرّات عديدة، وعملوا على زرع الفتنة بين المسلمين.
- توجّه النبيّ ﷺ في صلاته إلى بيت المقدس، فاستغلّ اليهود هذه القضيّة لتكون ذريعةً لنفث سمومهم ضدّه ﷺ، فتأذّى النبيّ ﷺ من ذلك، فأنزل الله تعالى عليه الوحي يأمره بالتوجُّه في الصلاة إلى الكعبة الشريفة.
- واجه اليهود النبيّ ﷺ بأساليب عدائيّة مختلفة، وطرحوا الأسئلة التعجيزيّة، وعملوا على الضغط الاقتصاديّ على المسلمين، وحرّضوا أعداء الإسلام عليه ﷺ فواجههم بالاغتيال لكبار أصحاب الفتنة منهم.
- وحيث لم تردع هذه الطرق اليهود عن الاستمرار في غيّهم، أعلن النبيّ ﷺ الحرب الشاملة ضدّهم فحارب بني قينقاع وبني النضير الموجودين في داخل المدينة، وأجلاهم عنها.

منطق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

لقد اتّفق جميع الذين وصفوا منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان أحسن الناس منطقاً.

فقد سأل الإمام الحسن عليه السلام هند بن أبي هالة التميميّ أن يصف له منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلّم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (الأشداق جوانب الفم أي لا يفتح فاه كلّه) ويتكلّم جوامع الكلم فصلاً لا فضولاً ولا تقصيراً فيه، دمثاً ليس بالجافي ولا المَهين، يُعظِّم النعمة وإن دقّت ولا يذمّ منها شيئاً، ولا يذمّ ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا تُغضبه الدنيا وما كان لها، إذا تُعوطي الحقّ لم يعرف أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصرُ لها، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث أشار بها فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ من طرفه، جُلُّ ضحكه التبسّم ويفتر عن مثل حبِّ الغمام**»[1].

وإذا أردنا أن نبحث عن مكوّنات حلاوة منطقه صلى الله عليه وآله وسلم وحُسنه لحصلنا من ذلك على العناصر التالية:

- **ترك الفاحش من القول:** فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سَبَّاباً ولا فَحَّاشاً، بل كان أبعد ما يكون عن الفُحش والبذاءة في الكلام. فقد رُوي أنّه قيل له: يا رسول الله ادعُ على المشركين! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّي لم أُبعث لعّاناً وإنّما بُعثت رحمة**»[2].

وعن أنس بن مالك قال: خدمت النبيّ تسع سنين فما قال لشيء أسأتَ، ولا بئس

(1) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق، ص13.
(2) الشيخ الأميني، الغدير، ج8، ص252.

ما صنعْتَ، وكان إذا أنكر الشيء يقول: كذا قُضِي[1].

- **فصاحة لسانه:** فقد كان رسول اللّه ﷺ فصيح اللسان، إذا تكلّم تكلّم بأناة وهدوء.
- **تبسّمه أثناء التكلُّم:** قال أبو الدرداء: كان رسول اللّه ﷺ إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه[2].
- **تكليمه للناس على قدر عقولهم:** فكانت أساليب عرضه للأفكار وإجاباته عن الأسئلة تختلف في البُعد والمستوى من شخص لآخر، طبقاً للقابليّات الذهنيّة التي يتمتّع بها الأفراد، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ بقوله: «**إنَّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلّم الناس على قدر عقولهم**»[3].

(1) الأصبهاني، أخلاق النبيّ ﷺ، ص 36.
(2) م.ن، ص92.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص23.

الدرس الثاني عشر

جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (5)

غزوة بني قريظة - معركة خيبر

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يعرف أسباب غزوة بني قريظة ونتائجها.

2- يفهم نتائج انتصار المسلمين في معركة خيبر ويحلّلها.

3- يعرف فضل أمير المؤمنين عليه السلام في فتح حصن خيبر على يديه.

حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود: غزوة بني قريظة

لقد كان بين يهود بني قريظة وبين رسول الله ﷺ عهد واتفاق على أن لا يُحاربهم ولا يُحاربوه، ولا يُعينوا عليه أحداً، غير أنّهم نقضوا العهد وتعاونوا مع قريش والمنافقين في معركة الأحزاب ضدّ رسول الله ﷺ ودعوته.

وبعد جلاء الأحزاب عن المدينة سمع النبيّ ﷺ بخيانتهم، فأرسل إليهم سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة، لتذكيرهم بالعهد والميثاق، فأساؤوا الردّ، وأصرّوا على نقض العهد، فسكت عنهم رسول الله ﷺ حتّى هُزمت قريش والأحزاب، وكسب المسلمون معركة الخندق.

وفي نفس اليوم الذي رجع فيه النبيّ ﷺ من ساحات المواجهة في الخندق قرّر الهجوم عليهم حتّى إنه ﷺ أمر من كان معه من المسلمين ألّا يُصلّوا العصر إلّا في بني قريظة، لكسب الوقت، واستثمار الموقف النفسيّ المنهار لدى اليهود وحلفائهم من المشركين والمنافقين، ولكي لا يُعطيهم الفرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم وإنشاء علاقات تزيد في قوّتهم.. فأعطى رايته للإمام عليّ عليه السلام وتبعه المسلمون بالرغم ممّا كانوا عليه من التعب والسهر خلال حصار الأحزاب لهم.

طوَّق المسلمون اليهود في حصونهم وأخذوا يرمونهم بالحجارة والسهام، ولم يجرؤ بنو قريظة على أن يخرجوا من حصونهم طوال مدّة الحصار؛ لأنّ المسلمين أحاطوا بهم من جميع الجهات، واستمرّ الحصار أيّاماً، وقيل: عشرة أيّام، وقيل: أكثر من ذلك.

وخـلال الحصار أرسل ﷺ إليهم بعض أصحابـه لمواجهتهم فرجعوا مُنهزمين، فبعث الإمام عليّاً عليه السلام فكان الفتح على يديه، فاستسلموا، وطلبوا من النبيّ ﷺ أن يُعاملهـم كما عامل بني النضير من قبل، فأبـى عليهم رسول الله ﷺ ذلك، وعرض عليهم أن يختاروا من الأوس ـ وهم حلفاؤهم ـ من شاؤوا ليحكم فيهم، فاختاروا **سعداً بـن معـاذ**، ونسوا موقفهـم مع سعد حينما نقضوا العهد، وانضمّـوا إلى الأحزاب ولم يستجيبوا إليه عندما حذّرهم من ذلك.

فحكـم سعد فيهم بقتل الرجال أي المقاتلين منهم فقط ممن نقض العهد وقاتل، وسبـي النساء والذراري ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم[1]. ولا شكّ في أنّ النبيّ ﷺ كان يـرى فيهم هـذا الرأي، لأنّه إذا عفا عنهم اليوم فسيُمثّلون معه نفس الدور الذي مثّلـوه بالأمس حينما انضمُّـوا لأعدائه وتآمروا سرّاً معهم، فهـو ﷺ لم يأمن الغدر والتآمـر اليهوديّ ضدّه مـرّة أخرى، بل ربّما يشتدّ خطرهم لو تركهم ويستعصي على المسلمين بعد ذلك استئصالهم.

لذلـك أمر رسول الله ﷺ بتنفيذ حكم «**سعـد**» في حقّ من قاتل منهم، وخرج إلى سـوق بالمدينـة فحفر بها الخنادق وقتـل من قاتله منهم من الرجـال، وأسر النساء والأولاد. وقد اختلف المؤرِّخون في عدد القتلى والأسرى منهم، لكنّ الأقوال في ذلك تتـراوح فـي عدد القتلى مـا بين الثلاثمائة رجـل والألف، بينما بلغ عـدد الأسرى ما بيـن السبعمائة وخمسين والألـف. وبذلك تخلّص المسلمون من أشـدّ أعداء الدولة الداخليّيـن؛ حيث قضت هذه الغزوة القضاء التامّ على جماعات اليهود في المدينة، الذين كانوا يُهدِّدون أمنها واستقرارها بالتآمر والتجسُّس والإشاعات والتخريب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى انسحاب جيوش الأحزاب وغزوة بني قُريظة وانتصار المسلميـن فيهـا بقولـه تعالـى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ

(1) راجـع لمزيـد من التفاصيل حول هذه الغـزوة،: العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ج20، صـ233 – 238، وتاريخ الطبري: ج3، ص53.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾[1].

حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود: معركة خيبر

كان يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهوديّة في بلاد الحجاز وأكثرهم عدداً وعُدَّة وأمنعهم حصوناً، فخيبر قرية من قُرى اليهود المجاورة للمدينة، تقع على قِمّة جبل، ويُحيطها حصنٌ حجريّ ظنّ أهله أنّه مانعهم من إرادة الحقّ[2]، وسيوف المجاهدين المؤيَّدين بنصر الله سبحانه. ويهود خيبر على عادة اليهود، قد استحكم بهم الغرور، وغرّهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

وفي حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل، كانوا يخرجون كلّ يوم صفوفاً يستعرضون قوّتهم، ويسخرون من قوّة المسلمين وهم يُردِّدون «**محمّد يغزونا، هيهات! هيهات!**»[3].

وهذا الاعتداد بالقوّة لم يكن ليخدع يهود خيبر وحدهم، بل كان يهود المدينة الذين يعيشون وسط المسلمين قد انخدعوا به أيضاً، فراحوا يُهدِّدون المسلمين بتلك القوّة، ويحاولون إظهار التفوُّق العسكريّ لخيبر على المسلمين، وذلك لإشاعة الحرب النفسيّة، وإضعاف الروح المعنويّة للمسلمين.

وكانوا يُردِّدون على مسامع المسلمين: «**ما أمنع والله خيبر منكم، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها، لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم. حصونٌ شامخات في ذُرى الجبال، إنّ بخيبر لألف دارع، وما كانت «أسد» و«غطفان» يمتنعون من العرب قاطبة إلّا بهم، فأنتم تُطيقون خيبر؟!**»[4].

(1) سورة الأحزاب، الآيات: 25 -27.
(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص360.
(3) الواقدي، المغازي، ص 637 – 703، وهيهات اسم فعلٍ ماضٍ بمعنى بَعُدَ.
(4) راجع: الواقدي، المغازي، ج2، ص237.

أمّـا الإعلام الإسلاميّ فـي المدينة فكان يردّ منطلقاً مـن الثقة باللّه، والإصرار علـى الجهاد والمقاومـة: إنّ اللّه قد وعد نبيّه أن يُغنمه خيبـر[1]، ولا خُلف لوعد اللّه بالنصر.

وفي ظلّ هذه الأجواء راح الرسول ﷺ يصبر ويُصبِّر على كلّ أذى خيبر بسبب ما كانت تُمارسه ضدّ الإسلام والمسلمين.

فمنهـا: انطلق زعماء اليهـود لدعوة القبائل العربيّة وتحزيبها ضدّ المسلمين في غزوة الخندق، وقد بذلوا الأموال في ذلك.

ومنهـا: خـرج حييّ بن أخطـب ودفع بنيِ قريظـة إلى نقض العهـد في اللحظات العصيبة. وقد غدت خيبر بمرور الأيّام ملجأ يأوي إليه اليهود المُبعدون عن المدينة، ينتظـرون الفرصـة للانتقـام من الإسـلام، واسـترداد مواقعهـم ومصالحهم التي جرّدهم النبيّ ﷺ منها.

وقـد اتضح هذا في الأيّـام القليلة التي أعقبت هزيمة بني قُريظة، إذ بلغت خيبر أنبـاء هزيمـة بني قُريظة فاتّصل بعض اليهود بزعيمهم «**سلام بن مشكم**» وسألوه الرأي فأجابهم: نسير إلى محمّد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد، ونستجلب يهود تيمـاء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، قد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.. ثمّ نسير إليه في عقر داره، فقالت اليهود: هذا الرأي[2]. وها هم يُحرِّضون غطفان وغيرها ويعدونهم أن يمنحوهم ثمر خيبر لسنة إن هم تحالفوا معهم ضد الإسلام والمسلمين.

لهـذه الأسبـاب وغيرهـا عقـد الرسـول ﷺ العزم علـى غزوهم فـي حصونهم ومعاقلهم المنيعة في خيبر، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة، فجمع ﷺ جيشه

(1) م. ن.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص530 - 531.

وتكتّم على مسيره، وخرج من المدينة في ألف وستمائة مقاتل من المسلمين، وأعطى رايتـه لعلـيّ عليه السلام، وسلك طُرقاً تحفـظ سرِّيَّة تَحرُّكه، فلم يشعـر اليهود إلّا وجيش المسلميـن قد نزل بساحتهم ليلاً. وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد وعده الله بالنصر وأن يردّه إلى المدينة فاتحاً غانماً.

وحيـن فوجئوا بقوّات المسلمين، تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على القتال فأدخلوا نساءهـم وأولادهـم وأموالهم فـي بعض الحصـون، وأدخلوا ذخائرهـم في حصون أُخـرى، بينمـا دخـل المقاتلـون منهم فـي حصن عُـرف بحصن النطـاة أو حصن القموص، والتقـى الجمعان حول هـذا الحصن، ودار قتال شديـد بينهما حتّى جُرح عدد كبير من المسلمين.

وكان الهجـوم على الحصن قد بدأ بإرسال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سَرِيَّة من المسلمين بقيادة أبـي بكر، غير أنّه لـم يستطع أن يفتح ثغرة في تحصينات العـدوّ، بل عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهزمـاً، ثمّ أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمر بن الخطّـاب لمعاودة الكرّة، فرجع منهزماً أيضاً، فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك قال: **«لأُعطينَّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ الله ورسولَـه ويُحبُّـه اللهُ ورسولُـه، يفتـح الله على يديه، كرّاراً غير فـرّار»**[1]، فدعا رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمـام علي عليه السلام، وهـو أرمد، فتفل في عينيه، ثـمّ قال: **«خذ هذه الراية، فامض بها حتّى يفتح الله عليك»**.

فخـرج الإمـام عليّ عليه السلام ومعـه المقاتلـون المسلمون فـدار قتـال بينهم وبين اليهـود على أبواب الحصن، وقَتَلَ الإمام عليّ عليه السلام **«مرحباً»** وهو من أبطال اليهود وصناديدهـم بعدما كان قد قَتل أخـاه الحارث وأكثر من ستّة من فرسان اليهود على باب الحصن، فاستولى الخوف على اليهود والتجأوا إلى الحصن وأغلقوا بابه، وكان مـن أمنع الحصون وأشدّها وقد حفروا حوله خندقـاً يتعذّر على المسلمين اجتيازه،

(1) انظر، تاريخ الطبري، ج2، ص300.

فاقتلع الإمام عليّ عليه السلام باب الحصن، وجعله جسراً فعبر عليه المسلمون، واستبسلوا بقيادة الإمام عليّ عليه السلام فهاجموا بقيّة الحصون وتغلّبوا على من فيها حتّى انتهوا إلى حصني الوطيح والسلالم، وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيهما النساء والذراري والأموال.

ولمّا شعر اليهود بأنّه أُسقط ما في أيديهم، وأنّ المسلمين سيأسرونهم ويقتلونهم إن هم أصرّوا على موقفهم، استسلموا وطلبوا العفو من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأجابهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك بعد أن استولى على أموالهم، وتمّ الاتفاق بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على أن تبقى الأرض في أيديهم يعملون فيها بنصف الناتج والنصف الآخر للمسلمين.

وبعد فتح خيبر رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«والله ما أدري بأيّهما أنا أشدُّ سروراً: بقدوم جعفر، أو بفتح خيبر؟»**[1].

إنّ انتصار المسلمين الساحق في خيبر يعود إلى العوامل التالية:

1- التخطيط العسكريّ والتكتيك الحربيّ الدقيق.

2- تحصيل المعلومات الدقيقة عن تمركز العدوّ داخل الحصون.

3- تفاني الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وشجاعته وبطولته النادرة، والتسديد الإلهيّ الذي مكّنَه من قتل أبطال اليهود وفرسانهم، وقلع باب خيبر وفتح الحصن على يديه[2].

(1) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج8، ص50.

(2) راجع عوامل الانتصار في كتاب سيد المرسلين، ج2، ص405 – 408.

استسلام يهود فدك

لمّا سمع يهود فدك ـ القرية اليهوديّة المجاورة لخيبر ـ بما حلَّ برفاقهم في خيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يُعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم، فوافق ﷺ على ذلك وصالحهم على نصف ناتج الأرض، فكانت خيبر مُلكاً للمسلمين لأنّهم استولوا عليها بالحرب، وفدك للنبيّ ﷺ خاصّة لأنّه تملَّكها بالصلح، وقد وهبها النبيّ ﷺ للسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام في حياته، وسلّمها إيّاها وجعلت عُمّالها فيها، وصارت هي المُشرِفة على أعمالها وعلى ناتجها. وكانت تصرف ناتجها على فقراء بني هاشم وحسبما تشاء[1].

فقد جاء في الدرّ المنثور للسيوطيّ عن أبي سعيد الخدريّ أنّه قال: لمّا نزلت الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام وأعطاها فدكاً، كما روى ذلك جماعة عن ابن عبّاس[2].

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدريّ: أنّه ﷺ وهبها لفاطمة عليها السلام، ولمّا انتهت الخلافة لأبي بكر كان أوّل ما قام به أن انتزعها من يدها، بحجّة أنّ النبيّ ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث، ما تركناه صدقة**»[3]، وأصرّ على ضمّها إلى مالية الدولة العامة بالرغم من أنّها طالبت بها وأقامت البيّنة على مُلكيّتها لها.

سقوط بقية مواقع اليهود: وادي القرى وتيماء

أمّا وادي القرى التي كان أهلها من اليهود الحربيّين الذين تآمروا على الإسلام والمسلمين، فقد توجّه إليها النبيّ ﷺ وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى

(1) يراجع: حسن أحمد الهادي، فدك هبة النبوة، دار الولاء، بيروت.

(2) انظر، الفيروز آبادي، فضائل الخمسة، ج3، ص136.

(3) أورد هذا النص كبار محدّثي أهل السنة كالبخاري ومسلم وغيرهما. يُشار هنا إلى أنّ فدك ليست من الإرث، بل كانت نحلة وهبها رسول الله ﷺ إلى فاطمة عليها السلام في حياته، فكانت صاحبة يد على فدك.

الإسـلام، وأخبرهم أنّهـم إن أسلموا أحـرزوا أموالهم وحقنـوا دماءهم، وحسابهم علـى الله، ولكنّهم أبَوا وأصرّوا على القتال، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة، والنبـيّ ﷺ يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون، مـا دفعه إلى تشديد الحصار عليهم حيـث تمكّن مـن فتح بلدهم عنوة، وبقي هناك أربعة أيّـام قسّم خلالها الغنائم على أصحابه، وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها.

ولمّـا بلغت يهود تيماء أنبـاء الانتصارات الإسلاميّة، صالحـوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم[1].

وبسقـوط خيبر والمواقـع المجاورة تمّ تصفيـة آخر تجمُّع يهـوديّ لعب دوره في مواجهـة الإسلام ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامـرات ضدّه، وقُضي قضاءً تامّـاً على القـوّة السياسيّـة والاقتصاديّـة والعسكريّـة ليهود الحجـاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العُليا في معظم مساحات الجزيرة العربيّة.

(1) راجع، المغازي للواقدي، ج2، ص709-711، والفتوح للبلاذري، ج1، ص39-40، والتنبيه والاشراف للمسعودي، ص224-225.

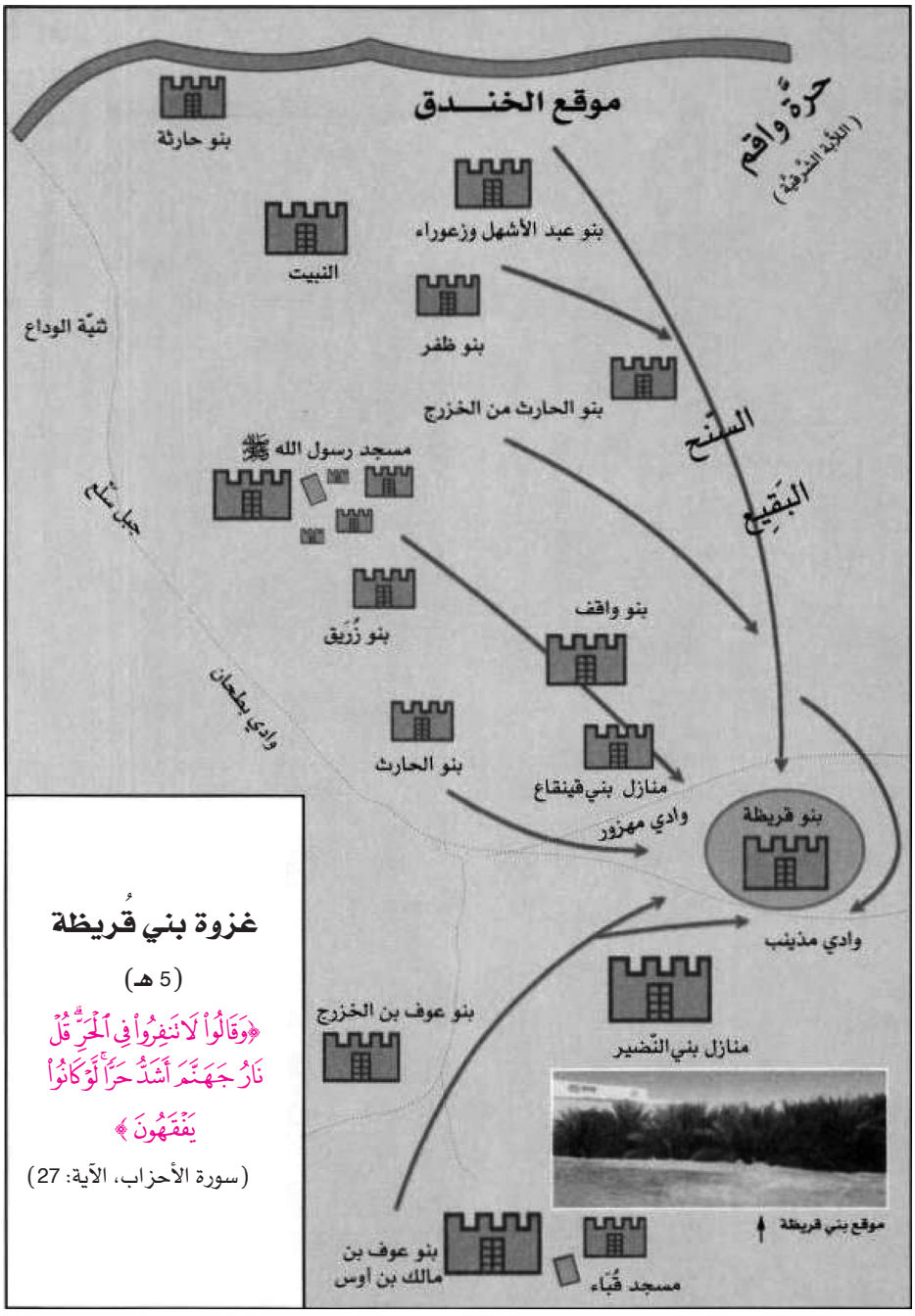

غزوة بني قُريظة

(5 هـ)

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾

(سورة الأحزاب، الآية: 27)

خلاصة

- واصل النبيّ ﷺ حروبه ضدّ اليهود واستطاع الانتصار عليهم في غزوة بني قُريظة، وفي معركة خيبر، وفي فدك وغير ذلك.
- اختار بنو قُريظة حُكم سعد بن معاذ، ففوجئوا بحكمه القاضي بسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وتبنّى النبيّ ﷺ هذا الرأي.
- توّج النبيّ ﷺ انتصاراته على اليهود في معركة خيبر، فبعد حصارهم الطويل أرسل النبيّ ﷺ عدداً من أصحابه لفتح ثغرة في تحصيناتهم فلم يوفّقوا، فأعطى الراية للإمام عليّ عليه السلام الذي كتب الله تعالى النصر على يديه، وقتل زعيمهم «**مرحباً**» وهو من أبطال اليهود.
- استكمل الرسول الأعظم ﷺ عمليّة القضاء على اليهود باستيلائه على قرية فدك اليهوديّة، التي صالحوا الرسول ﷺ عليها، وبحصاره لهم في وادي القرى وتيماء حيث استسلموا ورضخوا فيما بعد.

نماذج من آداب معاشرته ﷺ للناس

- كان رسول الله ﷺ طَلقَ الوجه دائم البِشر، يواجه الناس بالابتسامة، ويُحسن لقاءهم، ويعاملهم بالرفق واللين والرحمة، ولم يكن يبدو على وجهه العبوس أو الحزن أو الانقباض، بل كان بشوشاً ويُخفي أحزانه وآلامه.

فقد روى الإمام الحسن عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: «**كان رسول الله ﷺ دائم البِشر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب -من الصخب وهو شدّة الصوت- ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح**»[1].

وكان يُخاطب قومه ويقول: «**يا بني عبد المطّلب إنّكم لن تَسعُوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحُسن البِشر**»[2].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا وصف رسول الله ﷺ قال: «**كان أجود الناس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة (لأوّل مرة) هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده**»[3].

- وكان ﷺ شديد المدارة للناس وأرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس، حتّى لقد روي عنه ﷺ أنّه قال: «**أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني بالفرائض**»[4].

وقال ﷺ: «**أعقل الناس أشدّهم مداراة للناس، وأذلّ الناس من أهان الناس**»[5].

- ومن مصاديق رِفقِه بالأُمَّة، ومعاملته لها بالحسنى: ما رواه يونس الشيباني قال:

(1) السيد الطباطبائي، سنن النبيّ ﷺ ص 104.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص103.
(3) السيد الطباطبائي، سنن النبي ﷺ، ص112.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص117.
(5) الشهيد الأوّل، الأربعون حديثاً، ص 56.

قال أبو عبد الله ـ الصادق ـ عليه السلام : كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟

قلت: قليل.

قال عليه السلام : «**فلا[1] تفعلوا؟ فإنّ المداعبة من حسن الخلق، وإنّك لتُدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُداعب الرجل يُريد أن يسرّه**»[2].

وعن الإمام عليّ عليه السلام : «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليُسرّ الرجل من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة**»[3].

- وكان صلى الله عليه وآله يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويُكنّي من لم يكن له كنية، فكان يُدعى بما كنّاه، ويكنّي أيضاً النساء اللاتي لهنّ أولاد، واللاتي لم يلدن، ويكنّي الصبيان فيستلين به قلوبهم.
- وكان صلى الله عليه وآله لا يأتيه أحد حرّ أو عبد أو أمَة إلّا قام معه في حاجته.

وعن الإمام عليّ عليه السلام : «**ما فاوضه أحدٌ قطّ في حاجة أو حديث فانصرف حتّى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وما نازعه الحديث أحد حتّى يكون هو الذي يسكت**»[4].

- وكان يُكرم من يدخل عليه حتّى ربما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته.
- وكان صلى الله عليه وآله لا يذمّ أحداً، ولا يُعيّر أحداً، ولا يُكلّم أحداً بشيء يكرهه، بل كان شديد الحياء حتّى لقد ورد أنّه صلى الله عليه وآله كان إذا أراد لوم أحد أو عتابه، يُعاتبه بكلّ حياء وخجل.
- ورُوي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتّى يحمله معه، فإن أبى قال صلى الله عليه وآله : «**تقدّم أمامي وأدركني في المكان الذي تُريد**»[5].

(1) وفي حديث آخر هلّا تفعلوا.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص663.
(3) السيد الطبطبائي، سنن النبي صلى الله عليه وآله، ص128.
(4) السيد الطبطبائي، سنن النبي صلى الله عليه وآله، ص 119.
(5) م.ن، ص122.

الدرس الثالث عشر

جهاد النبيّ ﷺ (6)

معركة مؤتة – غزوة تبوك

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى طبيعة المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطيّة.

2- يتعرّف إلى أحداث غزوة تبوك، ومحاولة اغتيال النبيّ ﷺ.

3- يفهم أهم الدروس والعبر من معركة تبوك على الصعيدين التربويّ والعسكريّ.

تمهيد

لقـد وقف النصـارى بالإجمال من الدعـوة الإسلاميّة منذ البـدء موقف العطف والتأييـد أحيانـاً. وظلُّوا كذلك إلى آخر العهد المكّي، ولـم يقع بينهم وبين النبيّ ﷺ احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة[1].

لكـنّ هـذا لم يمنع جماعـة كبيرة من النصـارى العرب من أن تلعـب دوراً سلبياً فـي العصر المدنيّ بمواجهـة الإسلام، وتتّخـذ المواقف العدائيّة ضـدّه، على شتّى المستويات بدفعٍ من الدولة البيزنطيّة الرومانيّة.

ففي العصر المدنيّ تمكّن الإسـلام من بناء دولته – التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحدود الاقليميّة والقوميّة – التي وصلت إلى حدود الدولة البيزنطيّة وحلفائها العرب في الشمال، وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصرانيّ.

وبمـرور الوقت واتساع نفوذ الإسلام شمالاً، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنيّة واليهوديّـة إلـى قبائل الشمـال.. بـدأ المعسكر البيزنطـيّ وحلفاؤه يشعـر بالخوف والخطـر ويقـوم ببعض التصرُّفـات المُعادية للإسـلام والمسلمين، فبـدأ مسلسل

(1) روي أنّ قيصر الروم كان يميل إلى اعتناق الإسلام بعد المعلومات التي توفّرت لديه عن نبوّة محمّد ﷺ. ولمّا أعلن عن هذه الرغبة واجه معارضة حادّة من الأهالي (وكانوا على الدين المسيحيّ) ومن جيش الروم، فتراجع عمّا كان قد عزم عليه.

الصـراع المُسلَّح بين المسلمين والنصارى. وكانت أبرز المعارك على هذا الصعيد: معركة مؤتة ومعركة تبوك.

معركة مؤتة

كان الدافـع لهـذه المعركة هو الانتقـام لحادثة مقتل الحارث بـن عمير الأزديّ مبعـوث الرسـول ﷺ إلى ملك بُصرى على يـد شرحبيل بن عمـرو الغسّانيّ. عامل هِرَقْـل. فـي مؤتة. فقـد كان لهـذه الحادثة وقع شديد علـى المسلميـن، وكان لا بُدَّ للنبـيّ ﷺ من أن يتّخذ موقفاً حاسمـاً إزاء المعتـدي بعـد هـذا الموقـف الغـادر.

فجهّز النبيّ ﷺ جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه)، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وأمرهم بالانطلاق صـوب الشمال، لتأديب القوى المعادية على فعلتها، وإشعارها بقوّة الدولة الإسلاميّة وقدرتهـا على ردع الغادرين والمعتديـن الذين يجدون في الحمايـة البيزنطيّة سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان.

وتُشيـر الشواهد الصحيحة إلى أنّـه ﷺ جعل القيادة لجعفر بن أبي طالب، ومن بعـده لزيـد بن حارثـة، ومن بعدهمـا لعبد الله بن رواحـة، وترك للجيش أن يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أُصيب الثلاثة.

أعـدَّ هرقل بعدما سمع نبأ التحرُّك الإسلامـيّ جيشاً كثيفاً قوامه مئة ألف مقاتل وعسكر في «مآب» من أرض البلقاء.

ولمّا وصل المسلمون إلى منطقة معان جنوبيّ الأردن بَلَغَتْهُم أخبار تلك الحشود.. فأقاموا ليلتين يتداولون الرأي بينهم وقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنُخبره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له، وكاد هذا الرأي أن يتغلّب لولا التربية الإيمانيّة والمعنويّة التي كان لها دورها في صنع القرار وتحديد الموقـف في اللحظات الحرجة، حيث وقف عبـد الله بن رواحة وقال بكلّ إيمان وقوّة

وشجاعة: «**يا قوم، والله.. ما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة**»[1].

فكان لهذه الكلمات أثرها الطيّب على تلك النفوس المؤمنة المجاهدة، فصمّموا على المُضي والقتال مهما كانت النتائج.

غادر المسلمون معسكرهم في «**مَعان**» وانطلقوا شمالاً حتّى إذا بلغوا تخوم «**البلقاء**» لَقِيَتْهُم جموع الروم وحلفاؤهم العرب في قرية تُدعى مؤتة، وهناك دارت معركة طاحنة بين الطرفين، استُشهد خلالها القادة الثلاثة على التوالي، فقرّر خالد بن الوليد الذي تولّى قيادة الجيش الانسحاب والعودة إلى المدينة.

غزوة تبوك[2]

بعد عودة الرسول الأعظم ﷺ إلى المدينة المنوّرة في أواخر السنة الثامنة للهجرة، في أعقاب دخول مكّة وانتصاره في حُنين، بلغته أنباء خطيرة عن تحرُّكات عسكريّة خطيرة يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب، من لخم وجذام وغسان، القيام بها ضدّ الإسلام والمسلمين. وقد قامت هذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء، فقرّر النبيّ ﷺ أن يتصدّى لهم.

وفي معظم الغزوات كان النبيّ ﷺ لا يُحدِّد هدفه العسكريّ زيادة في الكتمان والسرِّيَّة، بل إنّه كان يُعلن عن أهداف غير تلك التي يقصدها لتضليل الأعداء، أمّا في غزوة تبوك فقد بيَّن النبيّ ﷺ الهدف للناس «**لِبُعد الشقّة وكثرة العدو، ليتأهّب الناس لذلك أهبَّته**».

فأرسل إلى القبائل المُسلِمة في مختلف المناطق يُعلِمهم بما عزم عليه ويستنهضهم

(1) للتفصيل، راجع العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 21، ص50 – 63.

(2) حصلت غزوة تبوك في رجب سنة 9 من الهجرة.

للجهـاد معه، فأجابوا دعوتـه إلّا المنافقين، فإنّهم راحوا يختلقـون الأعذار الواهية حتّـى لا يخرجوا لقتـال الروم. وقد حكى القرآن عنهم ذلـك فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾[1].

ثمّ تمادى المنافقون في موقفهم، فلم يكتفوا بتخلُّفهم عن الجهاد، بل راحوا يُثبِّطون النـاس عنه ويُحرِّضون على التخلُّف والتخاذل، وقـد اجتمعوا لهذه الغاية في بيت أحد اليهود، فعلم النبيّ ﷺ بهم، فحرق عليهم الدار وكانوا عبرةً لغيرهم.

استكمل النبيّ ﷺ تجهيز المسلمين وولّى الإمام عليّاً عليه السلام إدارة المدينة، وقال لـه: «**أمـا ترضى أن تكون منّـي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّـه لا نبيّ بعدي؟**»[2].

ثمّ ما لبث أن انطلق ﷺ في رجب من السنة التاسعة بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة إلى ذلك الحين، قيل إنّه بلغ ثلاثين ألفاً.

بـدأ المسلمـون مسيرتهم التي قطعـوا فيهـا آلاف الأميال، وعانـوا آلام العطش والجوع والحرّ وقلّة وسائل الركوب وبُعد الطريق.. حتّى انتهى بهم المطاف إلى تبوك فـي أقصى الشمـال. ويبدو أنّ الـروم وحلفاءهم سمعوا بأنباء هـذا الجيش الكبير، وقدرتـه على اجتياز المصاعب، وإصراره على جهاد الأعـداء، وقدّروا أنّه لو انتصر فـي هـذه المعركة فسوف لا يقـف عند حـدّ، وبالتالي قد تتعرّض مواقعهم للخطر، فآثروا الانسحاب إلى الداخل، عبر أراضي الأردن وفلسطين، وربما كانوا يهدفون من ذلك ـ في الوقت نفسه ـ إلى جرّ المسلمين إلى الداخل والانقضاض عليهم هناك. إلّا أنّ النبيّ ﷺ لم يُتِحْ لهم تحقيق هدفهم هذا، وقرّر عدم التوغُّل إلى الداخل، وعسكر في تبوك جاعلاً إيّاها آخر نقطة في توغُّله شمالاً.

بقـي النبيّ ﷺ في تبوك حوالي عشرين يوماً يُراقـب تحرُّكات الروم من دون أن

(1) سورة التوبة، الآية: 81.

(2) وقال النبيّ ﷺ أيضاً في هذا الموقف: «**يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك**»، الشيخ المفيد، الإرشاد: ج1، ص115.

يُقاتـل أحداً. وأخذ يتّصل في الوقت نفســه بزعماء القبائل النصرانيّة المنتشرة في المنطقــة المُتاخِمة للحدود، وعقد مع بعضهم معاهــدات صلح وتعاون، فقطع بذلك ولاءهــم للدولة البيزنطيّــة وحوّلهم إلى مواطنيــن أو حلفاء للدولــة الإسلاميّة، وهو الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم.

محاولة اغتيال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

مــن الأحداث المُهمَّــة التي وقعت مع النبــيّ صلى الله عليه وآله وسلم خلال عودته مــن تبوك محاولة اغتياله، فقد ذكرت المصادر التاريخيّة أنّه حين وصل الجيش الإسلاميّ إلى العقبة (بيــن المدينــة والشام) قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من شاء منكم أن يأخذ بطن الـوادي فإنّه أوسع لكـم**» فأخــذ الناس بطن الــوادي وسلك هو طريق العقبة، وكان يقــود ناقته عمّار بن ياسر ويسوقها حذيفة بــن اليمان، فرأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ضوء القمر فرساناً قد تلثّموا ولحقــوا به من ورائه في حركة مُريبة فغضب صلى الله عليه وآله وسلم وصاح بهم وأمر حذيفة أن يضرب وجوه رواحلهم؛ فتملّكهم الرعب وعرفوا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد علم بما أضمرته نفوسهم بمؤامرتهم، فأسرعوا تاركين العقبة ليُخالِطوا الناس ولا تنكشف هويّتهم[1].

(1) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج21، ص247.

نتائج تبوك وملامح الانتصار

بعـد عشرين ليلة قضاها النبيّ ﷺ وقوّاته في تبوك، قفل عائداً إلى المدينة بعد أن حقّـق بحركته الصعبة تلك انتصـاراً على الجبهة النصرانيّـة البيزنطيّة، لا يقلّ أهميّة عـن انتصاراته الحاسمة علـى جبهات الوثنيّة واليهوديّـة، وهذه أبرز ملامح الانتصار:

1- فقـد كسب النبيّ ﷺ عدداً من القبائل القاطنة في جنوب الشام على الحدود إلـى جانب الدولة الإسلاميّة، وقطع علاقاتها بالروم، وحصل منها على عهد بأنْ لا تتعاون مع أحد عليه، ولا تتّخذ من بلدانها مركزاً للعدوان على الحجاز، وبذلك ضمن النبيّ ﷺ أمن المسلمين وحدود دولتهم.

2- والانتصار الأهمّ هو أنّ استجابة الرسول ﷺ لتحدّي الروم، وتقدّمه لقتالهم وانسحابهـم مـن طريقه وانتظاره إيّاهم قرابة عشريـن يوماً دون أن يُحرِّكوا ساكنـاً، جـاء ضربـة قاسية للسيـادة البيزنطيّة في بـلاد الشـام، وإضعافاً لمركزهـا وهيمنتهـا على القبائل التـي تعيش هناك، وكسـراً لجدار الخوف مـن القـوّة البيزنطيّة، وهو انتصـار نفسيّ حاسـم مكّن أهالـي البلاد، بعد سنين قليلة، من تجاوز ولائهم القديم والانطلاق لضرب البيزنطيّين وإلحاق الهزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاؤوا منها.

3- صعود سُمعة المسلمين ومكانتهم وهيبتهم داخل الحجاز وخارجها؛ بحيث إنّ القبائـل – التي شعـرت بمدى قوّة الدولة الجديدة وامتـداد نفوذها حتّى إلى قلـب الديار التـي كان أهلها يعملون لصالح الروم – بادرت إلى حسم خيارها وأخذت تتهافت على الرسول في المدينة بعد رجوعه من تبوك خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها، حتّى سُمّي ذلك العام (التاسع) بعام الوفود.

4- إنّ غـزوة تبـوك تُمثّل خطـوة من خطوات حركـة المسلمين باتجـاه الخارج،

وتخطّياً لنطاق العرب وجزيرتهم إلى العالم، وبادرة مُتقدِّمة مهّدت الطريق لحركة الفتوحات الإسلاميّة التي شهدتها العصور التالية لعصر النبيّ ﷺ.

مواقف ودروس من غزوة تبوك

1- ميّزت غزوة تبوك مرّة أخرى المُنتمين إلى معسكر الإسلام، فكشفت المنافقين الذين تَخلَّفوا عن الجهاد لأعذار واهية ومحّصتهم عن المؤمنين المجاهدين الذين سارعوا للانخراط في الجيش الإسلاميّ رغبة في الجهاد وعشقاً للشهادة.

وقد ذكر المفسِّرون أنّ عدداً من آيات سورة التوبة[1] نزلت بمناسبة تبوك، مقارِنَةً بين موقف المنافقين وموقف المؤمنين من الجهاد، وفاضحةً المنافقين وأساليبهم، مُحذِّرةً من مكرهم ومؤامراتهم، مشدِّدةً على عدم التساهل معهم أو الاستعانة بهم أو قبول أعذارهم.

2- في الوقت الذي تخلّف فيه بعضٌ عن الجهاد في تبوك، مُلتمسين الأعذار الواهية، كان بعضٌ من الفقراء المجاهدين تفيض أعينهم من الدمع لأنّهم لم يتمكّنوا من الخروج إلى الجهاد، بسبب عدم امتلاكهم لمؤونته وإمكاناته.

وقد ورد أنّ سبعة من فقراء المسلمين جاؤوا إلى النبيّ ﷺ وتوسّلوا إليه أن يُهيّىء لهم ما يُمكِّنهم من الخروج معه شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله، فأجابهم: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا عنه وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً لحرمانهم من شرف المشاركة، وأنزل الله بهذه المناسبة قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟

(1) راجع سورة التوبة، الآيات: 81 -96.

وَأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾[1].

3- شـارك المسلمون الأغنيـاء في تجهيز الجيش الإسلامـيّ والإنفاق عليه حتّى «**أنّ الرجـل كان يأتـي بالبعيـر إلـى الرجـل والرجلين فيقول: هـذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيُعطيها بعض من يخرج**»، بل ورد أيضـاً أنّ النساء ساهمنَ بحليّهنَّ في تبوك وشاركنَ الرجال في النفقة، حيث اشتركـنَ بكلّ ما قدرنَ عليه من مسك، وأسورة ومعاضد، وخلاخيل، وقراط، وخواتيم[2].

4- إنّ اختيار الإمام عليّ عليه السلام بالذات ليكون مكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة يُدير شؤونها في غيابه، كان إجراءاً ضروريّاً يستهدف حماية المدينة وحفظ كيانها مـن المنافقيـن والأعراب الذين تخلّفـوا عن تبوك بأعـداد كبيرة، وكان من المُحتمل أن يستفيدوا مـن فرصة غياب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للانقضاض على المدينة والعبـث بأمنها، فكانت الدولـة بحاجة إلى شخصيّة مرهوبـة الجانب تملك كفاءة القيـادة والولاية، ولا تحسب لأحد حساباً مهما بلغ من القوّة والمكانة، وتقف سدّاً منيعاً في وجه كلّ من يُحاول التآمر أو العبث بأمن الدولة وكيانها، وكان النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بأنّه لا يصلح لمهمّة كهذه غير الإمام عليّ عليه السلام، وقد قـال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم علـى ما جاء في مستـدرك الصحيحيـن: «**إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك**»[3].

(1) سورة التوبة، الآيتان: 91 و92.

(2) راجع، الواقدي، المغازي، ج3، ص991.

(3) راجع، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج2، ص337.

غزوة مؤتة
(جيش الأمراء)
جعفر بن أبي طالب، زيد بن حارثة، عبد الله بن رواحة
البحر المتوسط
النيل
مصر
ليبيا
السودان
النفوذ الكبرى
دومة الجندل
المدينة المنورة
مهد الذهب
مكة المكرمة
الطائف
جدة
رابغ
ينبع
خيبر
العلا
الوجه
ضبا
تبوك
معان
أيلة
البحر الميت
البلقاء
غزوة مؤتة
البحر الميت - ٣٩٢م
أريحا
القدس
مفاور
قمران
بيت لحم
الخليل
مأدبا
وادي زرقاء معين
ذيبان
وادي الموجب
الكرك
مؤتة
المزار
وادي الحسا
الحسا
الطفيلة
الشوبك
وادي عربة
البتراء
أذرح
وادي موسى
معان
العقبة
النقب

خلاصة

- لم تكن عداوة النصارى للمسلمين كعداوة اليهود، إلّا بدفع من الدولة البيزنطيّة الرومانيّة، بعد شعورهم بالخوف والخطر، نتيجة للانتصارات التي حقّقها الإسلام، فكانت أبرز المعارك: مؤتة وتبوك.
- كان الدافع لمعركة مؤتة الانتقام لمقتل مبعوث الرسول ﷺ إلى عامل هرقل، حيث أرسل ﷺ سريّة وجعل القيادة فيها لجعفر بن أبي طالب، وكان حشد النصارى كثيفاً مقارنة بالمسلمين، ولكنّهم صمّموا على القتال حتّى استشهد القادة الذين عيّنهم النبيّ ﷺ، فأمر خالد بن الوليد بالانسحاب.
- بعد أن بلغ النبيّ ﷺ أنباء عن تحرّكات خطيرة للجبهة البيزنطيّة، قرّر ﷺ التصدّي لها واستنهض كلّ القبائل المسلمة، إلّا أنّ المنافقين قاموا بتثبيط الناس، فعاقبهم النبي ﷺ، ثمّ ولّى عليّا عليه السلام على المدينة، وخرج مع المسلمين، ولمّا وصل إلى تبوك واستقرّ فيها، آثر الروم الانسحاب بدل المواجهة.
- بعد عودة النبيّ ﷺ من تبوك تعرّض لمحاولة اغتيال في العقبة باءت بالفشل، نتيجة علم النبيّ ﷺ وافتضاح المتآمرين.
- شكّلت تبوك انتصارا على الجبهة البيزنطيّة وكان له نتائج عدّة أبرزها:
- كسب عدد من قبائل جنوب الشام، كسر جدار الخوف من الروم، صعود سمعة المسلمين ومكانتهم، تمهيد الطريق للفتوحات الإسلاميّة، تمايز المجاهدين عن المنافقين، مشاركة المسلمين الأغنياء في تجهيز الجيش الإسلاميّ واختيار الإمام عليّ عليه السلام كخليفة عن النبيّ ﷺ في المدينة.

صفة مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: سألت أبي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر الله جلّ اسمه، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها» (أي لا يتّخذ لنفسه مجلساً خاصّاً يتميّز به)، **«وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كُلّاً من جلسائه نصيبه، حتّى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة، صابره حتّى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلّا بها أو ميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فكان لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواء»**[1].

مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، ولا تُرفع فيه الأصوات، ولا يُوهن فيه الحُرَم، ولا تُثنى فلتاته (أي لا تظهر هفواته)، متعادلون متفاضلون فيه بالتقوى، متواضعون، يوقّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب..

وأمّا سيرته مع جلسائه، فيقول الحسين عليه السلام نقلاً عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البشْر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب» (من الصخب وهو شدة الصوت) **«ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وممّا لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحداً ولا يُعيّره، ولا يطلب عورته»** (عيوبه) **«ولا يتكلّم إلّا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلّم أطرق جُلساؤه**

(1) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج2، ص 284.

كأنّ على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، متى تكلّم أنصتوا له حتّى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوّلهم، يضحك ممّا يضحكون منه، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتّى إن كان أصحابه ليستجلبونه، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلّا عن مكافىء، ولا يقطع على أحد حديثه، حتّى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام»[1].

وفي مشاركته ﷺ في الحديث الذي كان يدور في المجلس، يقول زيد بن ثابت: كنّا إذا جلسنا إليه ﷺ، إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا[2].

وفي سموّ أخلاقه مع جلسائه أيضاً، ما أشار اليه الإمام الصادق عليه السلام في حديث له: **«كان رسول الله ﷺ يُقسِّم لحظاته (نظراته) بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسويّة، ولم يبسط (يمدّ) رسول الله ﷺ رجليه بين أصحابه، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله ﷺ يده من يده حتّى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده»**[3].

(1) الأصبهاني، أخلاق النبيّ ﷺ، ص 17.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 671.
(3) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص 14.

الدرس الرابع عشر

البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى أسباب البراءة من المشركين.

2- يتعرّف إلى أحداث واقعة المباهلة مع نصارى نجران.

3- يُحدِّد مواقف النبيّ ﷺ من حركة النفاق العدائية.

عام الوفود وتصفية الوثنيّين

كان سقـوط مكّـة بأيدي المسلميـن ثمّ هزيمة التحالـف الوثنيّ فـي حُنَيْن، آخِر ضربتيـن حاسمتين للوجود الوثنيّ في الجزيرة، انهـار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركـة الإسلام بسرعة إلـى كلّ مكان. وأدركت القبائل العربيّـة أن لا مناص لها من تحديـد موقفها من الإسلام ودولتـه، فراحت تتسابق في إرسـال وفودها إلى قاعدة الإسلام – مدينة الرسول ﷺ – لمبايعته على الإسلام ومصالحته.

ولكثـرة هذه الوفود في العام التالي لفتح مكّـة ومطلع الذي يليه، سمّاه المؤرّخون (عـام الوفود). وكان في طليعـة هذه الوفود وفد ثقيف الذي قَدِم المدينة في أعقاب عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك.

وفي غمرة أفراح النبيّ ﷺ بنجاح الإسلام وانتشاره، مرض ولده إبراهيم وتوفّي في نفس العام.

البراءة من المشركين

لـم يبـقَ في الجزيـرة العربيّة قوّة تتمسّـك بالشـرك والوثنيّة، إلّا أفـراد لا يُعتدّ بهـم. وانتشـرت العقيـدة الإسلاميّـة السمحـاء، وكان لا بـدّ مـن إعـلان صريـح حـازم، يُلغـي كلّ مظاهـر الشـرك والوثنيّـة، فـي مناسـك أكبـر تجمُّـع عبـاديّ سياسـيّ، وحـان الوقـت المناسـب لتُعلِـن الدولـة الإسلاميّـة شعاراتهـا فـي كلّ

مـكان، وتُنهـي مرحلـة المـداراة وتأليف القلـوب التي تطلّبتهـا المرحلـة السابقة.

واختار النبيّ ﷺ «**يوم النحر في منى**» مكاناً للإعلان، وعيَّن أبا بكر ليقرأ مطلع سورة التوبة[1]، التي تتضمّن إعلان البراءة بصراحة، وفي هذه الآيات النقاط التالية:

1- لا يدخل الجنّة كافر.

2- لا يطـوف في البيت الحرام عُريان (إذ كانت تقاليد الجاهليّة تسمح بذلك)، ولا يحجّ بعد هذا العام مُشرك.

3- مـن كان بينه وبين النبيّ ﷺ عهد فأجلُه إلـى مُدّته، ومن لم يكن له عهد ومُدّة من المشركين فإلى أربعة أشهر، وبعد ذلك سوف يُقتل من وُجِدَ مُشركاً.

ونـزل الوحـي الإلهيّ على النبـيّ ﷺ قائلاً: «**إنّه لا يـؤدّي عنك إلّا أنـت، أو رجل منك**».

فاستدعـى النبيّ ﷺ الإمام عليّـاً عليه السلام وأمره أن يركب ناقتـه العضباء ويلحق بأبي بكر، ويأخذ منه البلاغ ويؤدّيه للناس[2].

ووقـف الإمام علـيّ عليه السلام بين جموع الحجيج في العاشر مـن ذي الحجّة، وهو يتلو البيـان الإلهيّ بقوّة وجـرأة تتناسق مع حزم القـرار ووضوحه، والنـاس ينصتون إليه بحذر ودقّة.. وكان أثر الإعلان على المشركين أن قَدِمُوا مسلمين على رسول الله ﷺ.

مباهلة نصارى نجران

في سياق ما كتبه رسول الله ﷺ إلى قادة ورؤساء وملوك بلدان العالم، بعث كتاباً إلى أسقف نجران، يدعوه فيه مع المسيحيّين إلى عبادة الله تعالى، فاجتمع زعماء نصارى نجـران لبحث الموضوع، وقرّروا أن يبعثوا وفداً إلى المدينة، وعلى رأسه الأُسقف نفسه

(1) وهـي الآيـات الأولى منهـا: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم ... فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ...﴾ الآيات: 1 – 5.

(2) ذكر هذه الواقعة: إبن الأثير، الكامل في التاريخ: ج2، ص291، الطبرسي، تفسير مجمع البيان: ج 5، ص13.

ليأتوا رسول الله ﷺ ويسألوه عن دلائل نبوّته.

استقبل رسول الله ﷺ الوفد، وأبدى احترامه لهم وفسح لهم المجال ليُمارسُوا طقوسهم، ثمّ عرض عليهم الإسلام فامتنعوا، وطال النقاش حول كون عيسى عليه السلام من البشر، فخلصوا إلى أن يباهلهم النبيّ ﷺ بأمر من الله عزّ وجلّ[1] واتفقوا على اليوم اللّاحق موعداً.

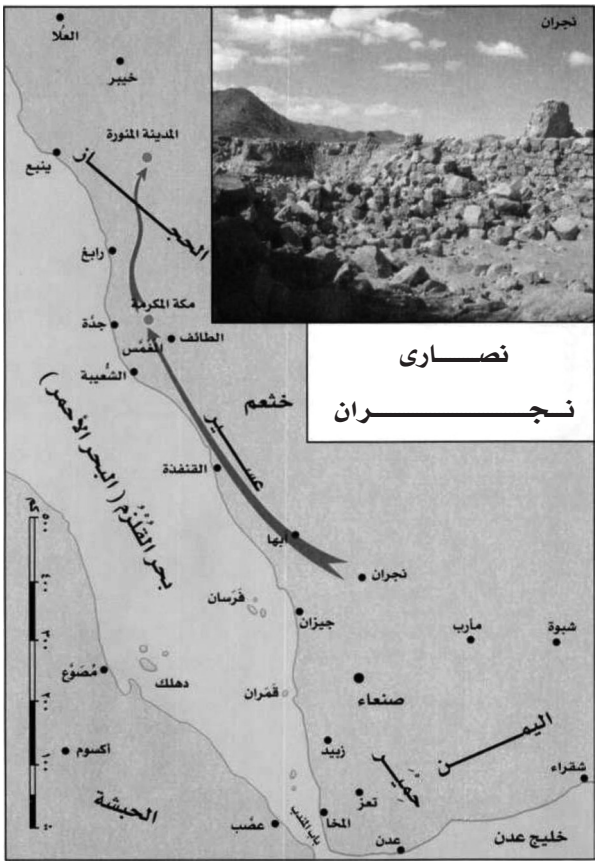

وهنا وقف أسقفهم وقال لقومه: انظروا إن جاء محمّد غداً بولده وأهل بيته فاحذروا مباهلته، وإن جاء بأصحابه وأتباعه فباهلوه.

وفي اليوم التالي خرج رسول الله ﷺ إلى المباهلة ومعه الإمام عليّ، والسيّدة فاطمة، وسبطاه الحسن والحسين عليهم السلام.

فقال عندها أسقف نجران: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله... فلا تُباهِلُوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيّ[2].

(1) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ... فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا...﴾ سورة آل عمران، الآية: 61.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار. ج21، ص337، الطبرسي، إعلام الورى، ص 129.

فامتنعـوا عن المباهلـة، وصالحهم النبـيّ ﷺ على دفع الجزيـة ضمن معاهدة وردت تفاصيلها في كتب التفاسير والتاريخ[1].

حركة النفاق في المدينة

وجد المنافقون أنفسهـم بعد الانتصارات الكبرى للنبيّ ﷺ بين خيارين، إمّا أن يبقـوا على كفرهم فيُعرِّضوا أنفسهـم للعقاب، وإمّا أن ينتمـوا للدين الجديد. ورأى زعيـم المنافقين عبـد الله بن أُبَي بن سلول، أنّ خير وسيلة للخروج من هذا المأزق، هو الإعلان عـن إسلامهم ظاهراً، والبقاء على اعتقاداتهم باطناً، وبهذا ينجون من العقـاب، ويحتفظون بمعطياتهم الجاهليّة. وهذا ما سمح لهم بالقيام بعمليّة تخريب من داخل المجتمع الإسلاميّ ما أوجد قوّة جديدة في مواجهة الإسلام.

أساليب المنافقين العدائيّة

اتخّذت أساليب المنافقين ومظاهر عدائهم أشكالاً شتّى نذكر منها:

1- مدُّ يد العون لليهود، ومساندتهم فيما كانوا يُحوكونه من مؤامرات على الإسلام، مثل وقوفهم مع بني قينقاع عندما نقضوا العهد مع الرسول ﷺ، ومعاونتهم لبني النضير عند حصار المسلمين لهم، عندما تآمروا على حياة النبيّ ﷺ.

2- ارتـكاب الخيانة بالانسحاب من ميادين الجهاد فـي اللحظات الحرجة، كما حصـل في انسحاب ابن أُبي بثُلث المقاتلين من منتصف الطريق إلى معركة أُحـد، وكذلك في غزوة تبوك، وإثارتهم للشائعات التي تُثير الخوف والهزيمة في معركة الخندق حيث أحاطت الأحزاب بالمدينة.

3- التخريـب الداخلـيّ وإثـارة الفتنـة بين فئـات المسلميـن، ونشـر الشائعات

(1) راجع: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص72، السيد الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج3، ص232.

الهدّامة، ففي غزوة بني المصطلق حاولوا إثارة الحسّ القبليّ بين المهاجرين والأنصـار، وكادت أن تقع فتنة بين الطرفين لا يعلم إلا الله مداها لولا حكمة النبيّ ﷺ.

4- قيامهـم بأعمال يُـراد منها الإضرار بالمسلمين وتفريـق صفوفهم ووحدتهم وتماسكهم، وذلك كبنائهم «**مسجد ضـرار**» الذي تحدّث عنه القرآن الكريم وأطلق عليه هذه التسمية، فَكَشَف بذلك نيّاتهم وفَضَح خطّتهم[1].

موقف النبيّ ﷺ من حركة النفاق

لم يدخل النبـيّ ﷺ في صراع مُسلَّح ضدّ المنافقين، كما فعل مع القوى الوثنيّة، واليهوديّـة، والنصرانيّـة، بالرغم من كلّ ممارساتهـم التخريبيّة، وخطرهم الذي لا يقـلّ عن خطـر غيرهم. والأسبـاب التـي أدّت إلى هذا الموقف مـن رسول الله ﷺ تتلخّص بما يلي:

1- إنّ المنافقين يمتلكون القدرة على الاندساس في صفوف المسلمين والاستخفاء بينهم، وهذا ما يمنحهم القدرة على إنكار جرائمهم ومكائدهم والتفلُّت ممّا يُدينهم، وبالتالي لا يُمكن للنبيّ ﷺ معاقبتهم أو حتّى عزلهم.

2- إنّهم كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويُخفون الكفر، وإنّما يُحاسَب الناس بحسب أعمالهم الظاهرة، فكيف يُمكـن معاقبتهم والحال هذه، والمعروف عنه ﷺ أنّه كان لا يتعرّض لمن يُظهِر الإسلام بسوء؟

3- إنّ ممارسـة القتل الجماعيّ أو الفرديّ تجاه أشخاص من أتباع النبيّ ﷺ في الظاهـر، محسوبيـن على مُعسكره، سـوف يُعطي لأعدائه فـي الخارج سلاحاً دِعائياً لمهاجمة الإسلام، وذريعةً لتخويف الناس من الدخول فيه، وهذا ما عبّر

(1) ذكـر القـرآن الكريـم هـذه الحادثة في قولـه تعالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا ...﴾ سورة التوبة، الآيتان: 107و108.

عنه النبيّ ﷺ لعمر بن الخطّاب عندما ألحّ عليه بممارسة هذا الأسلوب تجاه المنافقين بقوله ﷺ: «أتريد أن يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه»[1].

4- إنّ النفاق لا يتّخذ صفة العنف، ويظهر المنافق أمام الناس بأنّه لا يكيد للإسلام. وهنا تبرز الحاجة إلى إعطاء المنافقين الفرصة للتعرُّف أكثر فأكثر إلى تعاليم الإسلام وأهدافه.

5- إنّ سكوته ﷺ عن المنافقين، وقَبُولهم كأعضاء في المجتمع الإسلاميّ، إنّما يُريد به المحافظة على من أسلم من أبنائهم، وإخوانهم، وآبائهم، وأقاربهم، حتّى لا تنشأ المشاكل العائليّة الحادّة فيما بينهم.

6- إنّ اتخاذ أيِّ إجراء ضدّ المنافقين معناه فتح جبهة جديدة، كان بالإمكان تجنّبها.

والخلاصة: إنّ مواجهة المنافقين بالعنف والقتل والصراع المُسلَّح لم تكن في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولذلك لم يلجأ النبيّ ﷺ إلى هذا الأسلوب وكان بديل هذا الأسلوب شيئاً نادراً في تاريخ الدعوات، فقد تتبّع النبيّ ﷺ خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة، ولم يُحدِّد أسلوباً ثابتاً في مجابهة مواقفهم المتلوِّنة، وإنّما راح يضع لكلّ حالة إجراءاً أو خطّة تتناسب تماماً وحجم المحاولة التخريبيّة، فنجده ﷺ – مثلاً – أثناء التجهّز لتبوك عندما علم باجتماع المنافقين في بيت أحد اليهود ليُثبِّطوا الناس عن الخروج، يتّخذ إجراءاً فوريّاً بحقّهم فيأمر بحرق الدار عليهم.

وفي أعقاب تبوك في حادثة (مسجد ضرار) نجده ﷺ أيضاً يتّخذ إجراءاً عمليّاً ضدّ المنافقين، فيأمر بهدم مسجد ضرار وإحراقه.

وفي موقف آخر نجده ﷺ يفضحهم ويكشف عن حقيقتهم، وينبّه الصحابة إلى خُططهم ومؤامراتهم، ويُحذِّر الناس منهم.

(1) راجع: مسند أحمد، ج3، ص355 وص 393، دار صادر (بيروت)، وصحيح البخاري، ج6، ص66.

وكان هـذا بطبيعتـه يُمثِّـل حصانة ومناعـة للمسلمين ضـدّ النفـاق والمنافقين ومكائدهم، وإفشالاً لكلّ مُخطَّطاتهم ومؤامراتهم.

ومـن وراء الرسـول ﷺ كانت آيات القرآن الكريم تتنـزّل من اللّه تعالى، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي تفضح خططهم ومكائدهم الخبيثة قبل أن تقع، مُندِّدة بأساليبهم، مُظهرة أفعالهم، مُبيِّنة أوصافهم بدقّة.

وكلُّ ذلك لم يمنع من قوّة الإسلام ومنعته وانتشاره، وانهيال القبائل العربيّة على المدينة مُعلنين إسلامهم أمام رسول اللّه ﷺ.

عام الوفود
سنة تسع للهجرة
الشام
الأيلة
دومة الجندل
الوفود الكبرى
تيماء
مدائن صالح
خيبر
تبوك
أيلة
معان
السويس
فلسطين
المدينة المنورة
ينبع
جدة
مكة المكرمة
الطائف
نجران
اليمامة
دارين
البحرين
هجر
الربع الخالي
حضرموت
مهرة
شحر
صحار
خليج عمان
مسيرة
دبا
قشم
بندر عباس
دلون
شيراز
بوشهر
كهف خبان
تعز
المخا
عدن
مأرب
صنعاء
بحر العرب
١٠٠٠ كم

خلاصة

- كان العام التاسع الهجريّ عام الوفود، وعام تصفية الوجود الوثنيّ داخل الجزيرة العربيّة، من خلال الإعلان الرسميّ بالبراءة من المشركين، الأمر الذي أدّى بالمسلمين إلى أن يخرجوا من حدود الجزيرة العربيّة للدعوة إلى الإسلام.
- كانت دعوة القبائل النصرانيّة إلى حظيرة الإسلام، ثمّ دعوتها إلى المباهلة وتراجعها أمام دعوة المباهلة، دليلاً كافياً على عظمة الإسلام، وموجباً لرضوخها للقيادة الإسلاميّة.
- أمام الانتصارات الباهرة للمسلمين وجد المنافقون في المدينة أنفسهم أمام خيارين: إمّا البقاء على الكفر، وإمّا الانتماء إلى الدين الجديد، فاختاروا الثاني من أجل القيام بعمليّة تخريب من داخل المجتمع الإسلاميّ، ولجأوا إلى أساليب مُتعدِّدة في محاولة منهم للقضاء على الإسلام.
- وقف النبيّ ﷺ تجاه حركة النفاق موقفاً حكيماً، فلم يُقاتلهم، ولم يُشهِر السيف في مواجهتهم، بل عمد إلى فضح مكائدهم، والتشهير بهم أحياناً، فضلاً عن الأسلوب القرآنيّ في تنبيه المسلمين من المنافقين.

سلوكه ﷺ العسكريّ والأمنيّ

- يذكر المحلِّلون العسكريّون أنّ رسول الله ﷺ كان قائداً عسكريّاً فذّاً، وقد أدار المعارك العسكريّة التي خاضها ضدّ المشركين واليهود وغيرهم من أعداء الإسلام، بكفاءة وخبرة عالية، وهذه نماذج من سلوكه وتدابيره العسكريّة والأمنيّة.
- **الاستطلاع والرصد العسكريّ:** ويبدو أنّه لم تخل معركة من معارك الإسلام الكبرى، إلّا واستخدم النبيّ ﷺ فيها الاستطلاع والرصد العسكريّ، وقام بجمع المعلومات عن العدوّ، واستطلع تحرُّكاته وأوضاعه المختلفة، عن طريق العيون والطلائع وغيرهم.

فعندما خرج إلى بدر، بعث بسبسة بن عمرو الجهنيّ وعديّ بن أبي الزغباء الجهنيّ يتجسّسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره.

وفي أُحُد أرسل ﷺ الحبّاب بن المنذر إلى القوم، فدخل فيهم وقدّر عددهم وحجم عتادهم ونظر إلى جميع ما يُريد، وبعثه سرّاً وقال له: لا تُخبرني بين أَحَدٍ من المسلمين إلّا أن ترى قلّة فرجع فأخبره خالياً.

وقام بهذه المهمّة حذيفة بن اليمان يوم الخندق.

- **الكتمان والسريَّة وأمن المعلومات:** فقد كان ﷺ يُحيط تحرُّكاته العسكريّة بالسرّيّة التامّة، ويحرص على كتمان أهدافه والجهة التي يقصدها، حتّى عن المقرّبين، لئلا تتسرّب المعلومات الى العدوّ فيستفيد منها، وحرصاً منه ﷺ على تحقيق عنصر المباغتة ومفاجئة العدوّ، فعندما قرّر النبيّ ﷺ فتح مكّة أخفى نياته ولم يُطلِع المسلمين على وجهته، وقال ﷺ: «**اللهمّ خذ العيون والأخبار عن**

قريش حتّى نبغتها في بلادها»[1].

وقد روي أنّه ﷺ كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها.

- **الحرب النفسيّة:** واستخدم النبيّ ﷺ الحرب النفسيّة ضدّ العدوّ، بُغية تحطيم معنويّاته وشلّ إرادته وتفتيت وحدته الداخليّة، وبثّ الرعب والخوف واليأس في قلوب أعدائه.

فقد كان يأمر أصحابه بهجاء قريش، وقد كان يقوم بهذه المهمّة حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما، وكان يقول ﷺ: **«اهجوا قريشاً فإنّه أشدّ عليها من رشقٍ بالنبل»**[2].

وعندما سار لفتح مكّة ووصل إلى مشارفها أمر ﷺ أصحابه في النهار بجمع الحطب، ولمّا دخل الليل أمرهم بالتفرُّق وإشعال النيران في كلّ مكان، ليوهم العدوّ بأنّه أمام حشد كبير لا طاقة له على مواجهته. حتّى إنّ أحد أصحابه يقول: لقد كنّا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتّى تُرى من المكان البعيد، وذهب ذِكرُ معسكرنا ونيراننا في كلّ وجه حتّى كان ممّا كبت الله تعالى عدوّنا.

كما أنّه ﷺ قبل أن يدخل مكّة فاتحاً استعرض جيش المسلمين، وأمر العبّاس بن عبد المطّلب أن يحبس أبا سفيان في المضيق الذي تزدحم فيه الخيل، حتّى ينظر إلى المسلمين وقوّتهم، فحبسه العبّاس، وجعلت القبائل المسلمة تمرّ مع النبيّ ﷺ كتيبة كتيبة على أبي سفيان، في أكبر استعراض للقوّة شهدته المنطقة آنذاك.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص201.

(2) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج7، ص164.

الدرس الخامس عشر

الرسول القائد ﷺ ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يستعرض قصّة الغدير وتعيين خليفة النبي ﷺ.

2- يفهم خلفيّات التعبئة العامّة لغزو الروم.

3- يعرف الأحداث التي رافقت رحيل النبي ﷺ إلى الملكوت.

تعيين وصيّ رسول الله ﷺ

أتـمّ المسلمون حجّهم الأكبر وهم يحفّون بالنبيّ ﷺ، وقد أخذوا مناسكهم عنه، وقـرّر ﷺ أن يعود إلى المدينة، ولمّا بلـغ موكب الحجيج العظيم «رابغ» قرب «غدير خم»، وقبل أن يتفرّق الحجيج إلى بلدانهم من هذه المنطقة، نزل الوحي الإلهيّ بآية التبليغ قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1].

إنّ هـذا الخطـاب الإلهـيّ كان يأمر الرسـول ﷺ بأمرٍ مهمّ، ويجعـل على عاتقه مسؤوليّـة عظيمة. فـأيّ تبليغ طُلب من الرسول ﷺ إنجازه وهـو لم يقم به بعد، وقد أمضـى النبيّ ﷺ ما يُقارب من ثلاثة وعشرين عاماً يُبلّغ آيات الله وأحكامه، ويدعو النـاس إلـى دين الله، وقد نال ما نال من عظيم المحن والبلاء والجهد، كي يُقال له: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾.

وهنـا أصدر النبيّ ﷺ أوامره بأنّ تقـف القوافل حتّى يلحق آخرها بأوّلها، في يوم شديـد الحـرّ كان يضطرّ المـرء فيه إلى أن يُغطّـي رأسه، ويقي قدميـه من شدّة حرّ الرمضاء، ليتلو عليهم أمر السماء، ويكمل تبليغ الرسالة الخاتمة. إنّها الحكمة الإلهيّة بأنّ يتمّ التبليغ في هذا المكان وفي هذا الظرف، كي يبقى عالقاً في وجدان الأُمّة، حيّاً

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

في ذاكرتها على مرّ الزمن، حفاظاً على الرسالة والأُمّة الإسلاميّة.

وجُمعت الرحال وصعد عليها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن صلّى في جموع المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه وقال بصوت رفيع يسمعه كلّ من حضر:

«أيّها الناس يوشك أن أُدعى فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً. قال صلى الله عليه وآله وسلم: ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: اللهمّ اشهد.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«فإنّي فرطكم على الحوض وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبُصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين»**.

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«الثقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا. والآخر الأصغر عترتي. وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تُقصّروا عنهما فتهلكوا»**.

ثمّ أخذ بيد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى رُئي بياض إبطيهما، وعرفه الناس أجمعون.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه - يقولها ثلاث مرات -»** .

ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، وأحبّ من أحبّه وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله وأدرِ الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلِّغ الشاهد الغائب»**.

ثـمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل أمين وحي الله بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي والولاية لعليّ بعدي**».

ثمّ أمـر ﷺ أن تُنصب خيمة لعليّ عليه السلام، وأن يدخل عليه المسلمون فوجاً فوجاً، ليُسلِّمـوا عليه بإمرة المؤمنيـن، ففعل الناس ذلك كلّهم، وأمـر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممّن معه أن يفعلن ذلك.

وكان فـي مقدّمـة المهنّئين أبو بكر وعمر بن الخطّاب، كلٌّ يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[2].

تفرّقت جموع الحجيج من غدير خمّ نحو العراق والشام واليمن، ويمّم النبيّ ﷺ بأصحابه صوب المدينة. وحمل الجميع وصيّة الرسول ﷺ بالقيادة النائبة، لتستمرّ حركـة الرسالـة الإسلاميّة بنهج يتعمّـق في النفوس، وتجتاز العقبـات بعد أن يرحل عنهـا صاحـب الرسالة ﷺ، ويكون قـد عيّن لصيانـة رسالته وقيـادة أُمّته شخصاً نموذجيّاً في حمل هموم الرسالة، والحرص على نجاحها، لا تأخذه في الله لومة لائم ولم يُشرك بالله طرفة عين.

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

(2) راجـع تاريـخ اليعقوبي، ج3، ص112؛ مسند أحمـد، ج4، ص281؛ البداية والنهاية، ج5، صـ213؛ موسوعة الغدير، ج1، ص43، 165، 196، 215، 230، 238، 276، 283، 285، 297، 379، 392، 402، وج11، ص131.

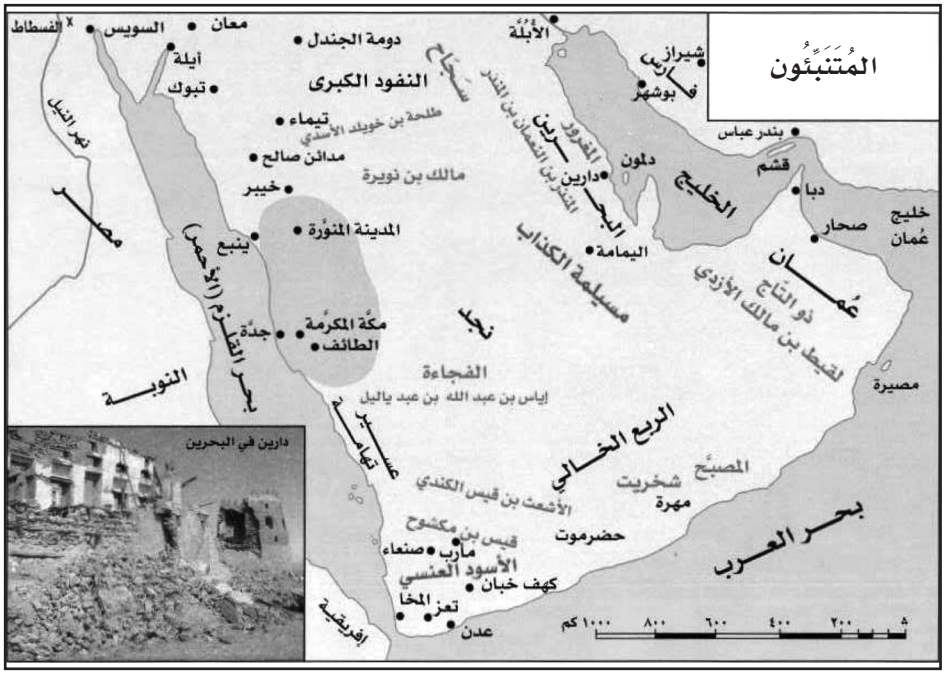

ظهور المتنبّئين

بعد أن انبسط سلطان الدين الإلهيّ في ربوع الجزيرة وما حاذاها، وانحازت القبائل جميعاً إلى دولة الرسول ﷺ، لِمَا رأوه من العزّة والاستقلال الذي اكتسبوه في ظلال دولته المباركة، ولِمَا لاحظوه من حرصه على أن يكون خليفته في أُمّته ودولته، والقائم على شؤون رسالته من اعتبره القرآن الكريم نفس الرسول العظيم ﷺ[1]، فمن الطبيعيّ جدّاً للنفوس السليمة بفطرتها أن تُخلِص الولاء لهذا الرسول ﷺ ودولته الفتيّة.

ولم يَعُد ذا بالٍ أن يتمرّد بعض العرب ويرتدّ عن ولائه السياسيّ بل العقيديّ وهو يرى النبيّ ﷺ سلطاناً وحاكماً مُتنفِّذاً ليس إلّا، كما كان أبو سفيان يرى النبيّ كذلك.

غير أنّ الأذكياء من هؤلاء كانوا يرون صلاحهم في الخضوع لهذا الكيان الجديد،

(1) راجع آية المباهلة وقصّتها في الدروس السابقة.

وكانوا يُخطِّطون للنفـوذ إلى مراكز القوّة في الدولة الجديدة، والأغبياء منهم بدؤوا التمرّد على النبيّ ﷺ طالبين منه أن يُقسِّم سلطانه.

إنّ الطمع في الشرف الذي نالته قريش يوم أصبح منها محمّد ﷺ نبيّاً - كما ظنّ الجاهلون - كان ممّا دفع بعضهم لأن يدّعي النبوّة، فهذا «مسيلمة» يكتب للنبيّ ﷺ ويدّعـي النبـوّة ليُشارك النبـيّ ﷺ في سلطان الأرض، ولمّا وقـف النبيّ ﷺ على مضمـون الرسالة التفت إلى من حملها إليه وقال: «**لولا أنّ الرسل لا تُقتَل، لضربت أعناقكما لأنّكما أسلمتما من قبل وقبلتما برسالتي، فلِمَ اتّبعتما هذا الأحمق وتركتما دينكما؟**».

ثـمّ ردّ على مسيلمـة الكذّاب برسالة بعثهـا إليه، جاء فيهـا: «**بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب. السلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين**»[1].

التعبئة العامّة لغزو الروم[2]

أبـدى النبيّ ﷺ اهتماماً كبيراً للحـدود الشماليّة للدولـة الإسلاميّة، حيث دولة الـروم المنظَّمـة وصاحبـة الجيش القويّ. وأمّـا فارس فلم تكن ذات أثـر مُقلق؛ لأنّ علامـات الانهيـار كانت قد بدت عليها، كما أنّها لم تكـن تمتلك عقيدة روحيّة تدافع عنها كالمسيحيّة لدى الروم.

علـى أنّ بعض عناصـر الشغب والنفاق كانت قـد أُجليت عن الدولـة الإسلاميّة، فاتّجهـت إلـى الشام، وكان وجود نصـارى نجران في الجنوب أيضـاً عاملاً سياسيّاً يدفع الروم لنصرتهم.

وكلّ هذه لم تكن عوامل آنيّة عاجلة تستدعي الاهتمام الكبير، الذي ظهر واضحاً من

(1) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج2، ص600.

(2) عقد النبي ﷺ اللواء لأسامة في صفر عام 11هـ.

إعداد النبيّ ﷺ لجيش كبير يضمّ كبار الصحابة ما خلا عليّاً وبعض المُخلصين معه.

مـن هنـا يظهر أنّ النبـيّ ﷺ كان يُريد أن يخلـو الجوّ السياسيّ مـن أحداث تُعيق استـلام وصيّـه الإمـام علـيّ بن أبـي طالب عليه السلام زمـام السلطـة من بعـده، بعد أن لمسـ تحسُّسـاً وانزعاجاً من بعض الأطـراف، لتأكيده المستمرّ علـى مرجعيّة الإمام علـيّ عليه السلام لإتمام مسيـرة الرسالة الإسلاميّة، فأراد النبـيّ ﷺ أن تخلو المدينة من أيّ توتّر سياسيّ ليتمّ للإمام عليّ عليه السلام ما خطّط ﷺ من استلام مقاليد الخلافة من بعده، ولهـذا عقد النبيّ ﷺ لواء المسلمين وسلّمه إلى «أُسامة بن زيد» القائد الشاب الذي نصّبه الرسول ﷺ في مغزى واضح وإشارة بليغة إلى أهمّيّة الكفاءة في القيادة، وجعـل تحت إمرتـه شيوخ الأنصار والمهاجريـن، وقال ﷺ له: «سِر إلـى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل فقد ولّيتك هذا الجيش، فاغزُ صباحاً وشنّ الغارة...».

ولكـنّ روح التمـرُّد وقلّـة الانضباط التي كانـت تبدر من بعض المسلمين أخذت تعترض على التسليم لأمر النبيّ ﷺ، ولعلّها كانت جاهلة بالأهداف والمصالح العليا للإسلام والتي قد عناها النبيّ ﷺ، وهو المعصوم المُسدَّد من قبل الله سبحانه.

وبلغ النبيّ ﷺ ذلك فغضب وخرج وهو يلتحف قطيفة، وقد عصَّبَ جبهته بعصابة من ألم الحمّى التي أصابته، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال ﷺ:

«أمّـا بعـد، أيّها الناس فمـا مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميـري أُسامة، ولئن طعنتـم فـي إمارتـي أُسامـة فقـد طعنتم فـي إمارتـي أباه مـن قبله، وأيـم الله كان للإمـارة خليقـاً وإنّ ابنـه من بعده لخليـق للإمارة، وإن كان لمن أحـبّ الناس إليّ وإنّهما لمخيّلان لكلّ خير[1]، واستوصوا به خيراً فإنّه من خياركم»[2].

واشتـدّت الحمّـى برسول الله ﷺ، ولم يشغلـه ثقل المرض عن الاهتمـام الكبير منه

(1) بمعنى أنّهما ممن يتفرّس فيهما كلّ خير. والخوليّ: هو الراعي الحسن القيام على المال. راجع المنجد مادّة خلل.
(2) الطبقات الكبرى، ج2، ص136.

لخروج الجيش، فكان يقول ﷺ: «أنفذوا جيش أُسامة»[1] لكلّ من يعوده من أصحابه ويزيد إصراراً بقوله: «جهّزوا جيش أُسامة لعن الله من تخلّف عنه»[2]. وأوصل بعض المسلمين أنباء تردّي صحّة النبيّ ﷺ إلى معسكر المسلمين في «الجرف» فرجع أُسامة يعود النبيّ ﷺ فحثّه على المضيّ نحو هدفه الذي رسمه له قائلاً له: «أُغدُ على بركة الله».

الحيلولة دون كتابة الوصيّة

ورغم ثقل الحمّى وألم المرض خرج النبيّ ﷺ مستنداً إلى الإمام عليّ عليه السلام والفضل بن العبّاس، ليُصلّي بالناس، وحين أتمّ الصلاة التفت ﷺ إلى الناس قائلاً: «أيّها الناس سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإنّي والله ما تُمسكون عليّ بشيء، إنّي لم أُحلّ إلّا ما أحلّ الله، ولم أُحرِّم إلّا ما حرّم الله»[3].

فأطلق ﷺ بقوله هذا تحذيراً آخر أن لا يعصوه وإن لاحت في الأُفق نواياهم السيّئة التي ستجلب الويلات على الأُمّة إذ يتزعّمها جهّالها.

واشتدّ المرض على النبيّ ﷺ واجتمع الصحابة في داره، فقال ﷺ للحاضرين عنده: «إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده».

فقال بعض الصحابة: «إنّ رسول الله قد غلبه الوجع[4] وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله».

ولما لم يأتوا بما طلبه منهم قال ﷺ: «قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع».

وكم كانت الأُمّة بحاجة ماسّة لكتاب الرسول ﷺ هذا، حتّى أنّ ابن عبّاس كان يأسف كلمّا كان يذكر ذلك ويقول: «الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله»[5].

وكان النبي ﷺ قد أوصاهم بثلاث وصايا تذكر بعض كتب التأريخ اثنتين منها

(1) م.ن، ج2، ص137.
(2) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص23.
(3) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج2، ص654؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص215.
(4) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، وكتاب الجهاد، باب جوائز الوفد، ج1، ص37.
(5) صحيح البخاري كتاب العلم، ج1، ص22، وج2، ص14.

وهمـا: إخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفد كما كان يُجيزهم، وتزعم هذه الكتب نسيان الثالثة.

وعلّـق السيّد محسن الأمين على ذلك قائلاً: والمُتأمِّل لا يكاد يشكّ في أنّ الثالثة سكـت عنها المُحدِّثون عمـداً لا نسياناً، وأنّ السياسة اضطرّتهـم إلى السكوت عنها عمداً وتناسيها، وأنّها هي التي طلب الدواة والكتف ليكتبها لهم[1].

اللحظات الأخيرة من عمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

وأقبلت السيّدة الزهراء عليها السلام وهي تجرّ أذيالها بحزن، وتتطلّع إلى أبيها وهو يوشك أن يلتحق بربّه، فجلست عنده مُنكسرة القلب دامعة العين، ودنت منه فأخبرها صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قد حضر أجله، وأنّه يُقبض في وجعه هذا، فبكت عليها السلام، ثمّ ما لبثت أن تلقّت البشرى منه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّها ستكون أوّل أهله لحوقاً به[2].

وكان الإمـام علـيّ عليه السلام يُـلازم الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم كظلّـه، حتّى آخر لحظـات حياته الشريفة، وهو يوصيه ويُعلّمه ويضع سرّه عنده.

نعـم، فـي الساعة الأخيرة قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ادعـوا لي أخـي»، وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد بعثـه فـي حاجة فجاءه بعض المسلميـن فلم يعبأ بهم الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم حتّى جاء الإمام علـيّ عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله وسلم لـه: «أُدنُ منّـي». فدنا الإمـام عليه السلام فاستند إليـه، فلم يزل مستنـداً إليه يُكلّمه حتى بدت عليـه صلى الله عليه وآله وسلم علامات الاحتضار[3]. وتوفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهـو في حِجْر الإمام عليّ عليه السلام كما قد صرّح بذلـك الإمام عليه السلام نفسه في إحدى خطبه الشهيرة[4].

(1) الأمين، السيّد محسن، أعيان الشيعة، ج1، ص294.
(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص247؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص219.
(3) م. ن، ج2، ص263.
(4) نهج البلاغة، خطبة 197.

خلاصة

- أتـمّ المسلمـون حجّهـم الأكبر وهم يحفّـون بالنبـيّ ﷺ، وقبـل أن يتفرّقوا إلى بلدانهـم وفي غدير خمّ نزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.
- وقف النبيّ ﷺ خطيباً بهم آخذاً بيد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قائلاً: «... **فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه...**».
- نـزل الوحـي مـن الله بقولـه تعالـى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾. ثمّ بايع الجميع عليّاً عليه السلام بإمرة المؤمنين وخلافة النبيّ ﷺ وكان في مقدّمتهم أبو بكر وعمر بن الخطاب.
- بعـد انبساط السلطان الإلهـيّ انضمّ جمع كبير من الناس إلى صفوف المسلمين وخضع من أضمر النفاق لهذا السلطان أيساً من التمرّد عليه، وادّعى بعض النبوّة كمسيلمة الكذّاب.
- أبدى النبيّ اهتماماً كبيراً للحدود الشماليّة مع دولة الروم، لما تشكّله من خطر، فأنفذ ﷺ جيشاً كبيراً ضمّنه كبار وجوه الصحابة بقيادة أسامة بن زيد، لمواجهة هذا الخطر ولكي يخلو الجوّ السياسيّ من أحداث تُعيق استلام وصيّة الإمام عليّ عليه السلام زمام السلطة بعد أن اشتدّ منه ﷺ المرض.
- روح التمرّد التي بدت من بعض المسلمين منعت انفاذ ذلك الجيش، وحالت دون كتابة وصيّة النبيّ ﷺ.
- مـا لبث ﷺ إلّا قليلاً حتّى غادر الدنيا الفانية بين يدي وصيّه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

للمطالعة

سلوك النبيّ ﷺ القيادي

كما كان رسول الله ﷺ عظيماً في أخلاقه الشخصيّة والاجتماعيّة، فقد كان عظيماً في خُلُقه السياسيّ كرجل دولة..

وهذه بعض ملامح سلوكه القياديّ وأخلاقه السياسيّة:

- **العدل والتدبير:** فقد كان ﷺ عادلاً حكيماً مُدبِّراً، وقد روى الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**كان رسول الله ﷺ يُقسِّم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر**»[1].

واستطاع بحكمته وتدبيره الحدّ من العداوات والأحقاد والبغضاء والحروب التي كانت سائدة بين القبائل.

- **حماية القوانين:** فقد كان ﷺ حريصاً على حفظ النظام العامّ، ورعاية التشريعات الإسلاميّة وحمايتها وعدم مخالفتها. ولم يُجامِل أحداً فيما يعني تطبيق الشريعة وإنزال العقوبة بالمُذنب كائناً من كان.

ففي فتح مكّة ارتكبت امرأة من بني مخزوم جريمة السرقة، وثبتت السرقة عليها من الوجهة القضائيّة، لكنّ قومها الذين كانت الترسُّبات القبليّة ما تزال تعشّش في أدمغتهم، رأوا أنّ إنزال العقاب بها يخدش مكانتهم ويُلحق العار بشرفهم، فبذلوا جهدهم وتوسّطوا لعلّهم يستطيعون رفع العقاب عنها، وأرسلوا أسامة بن زيد - الذي كان موضع احترام عند النبيّ ﷺ مثل أبيه - وسيطاً يتشفّع لها عند النبيّ، فغضب النبيّ ﷺ وقال له: «**ما هذا محلّ شفاعة**»، وأصدر أمره ﷺ بإنزال العقوبة بها وإجراء حدود الله.

(1) الشيخ الكليني، الكافي ج3، ص 554.

- **الالتزام بالعهود والمواثيق:** فلم يحدث إطلاقاً أن أخلّ ﷺ بعهوده التي أبرمها مع أعدائه، وقد أخلّت قريش بعهدها معه، وأخلّ اليهود بعهودهم ومواثيقهم، ولكنّه لم يُخلّ أبداً بعهده معهم.

- **الالتزام بمبدأ احترام الآخرين:** وهو المبدأ الخُلُقيّ الذي اتّبعه النبيّ ﷺ مع زعماء الدول الذين لم يكونوا على دينه، ففي الرسائل التي بعث بها الرسول الأعظم ﷺ إلى زعماء العالم آنذاك، نجد أنّ النبيّ ﷺ رغم تصلُّبه وتشدُّده في ذات الله، قد طبّق مبدأ الاحترام مع هؤلاء عندما خاطب **كسرى** بـ(عظيم فارس) و**قيصر** بـ(عظيم الروم)، وذلك من أجل أن يكشف لهم أنّ الإسلام هو الدين الذي جمع كلّ المبادىء السامية والقيم الأخلاقيّة.

- **بُعدُ النظر:** إنّ الدارس لسيرة الرسول ﷺ يرى أنّ الله تعالى أعطاه من بُعدِ النظرِ ما لم يُعطِ غيره. لقد رأينا بُعدَ نظره يوم وضعت قريشٌ الشروط لصلح الحديبيّة، فقد رأى بعض أصحابه أنّ في هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين، ورأى فيها رسولُ الله ﷺ - بما آتاه الله من بُعدِ النظر - النصرَ للمسلمين، ورأى أنّ قريشاً بوضعِها هذه الشروط إنما تحفُرُ قبْرَها بيدها، وتكتب دمارَ أطروحتها بقلمها.

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

1001010
DR OUK
0096133362 18